عبرة وذكرى

او

الدولة العثمانية
قبل الدستور وبعده

—⋄—

بقلم

سليمان البستاني

—⋄—

مطبعة الأخبار

اكتوبر سنة ١٩٠٨


LIBRARY
SEP
21
OF TORONTO

اهداء الكتاب



مدحت باشا

الى روحك الطاهرة يا رجل الحرية أُهدي هذه الصفحات .
وانك ولئن قضيت شهيداً في جهادك فحسبك انك افتديه بدماء
أمة تحلك محلاًّ اسمى من منزلة الشهداء . وهذه ذَرّة حقيرة من
مظاهر الولاء والاجلال



الى ابناء الوطن العثمانيين

تمهيد

لو تجلَّى للناس نبيٌّ من الانبياء لايامٍ خلت وقال للعثمانيين بشرا كم فلا يهل الهلال حتى تسطع في افق جوكم المدلهم اهلة الحرية والاخاء وتتفكك قيود الاستبداد فتُسحق وتذرى هباء منثوراً . وتتبدد غياهب الاحقاد والضغائن من بينكم حتى اذا بتم ليلتكم على غلة التباغض والتنابذ نهضتم وما شعرتم الا وقد انتزعها الله من افئدتكم المضطربة فهاجت صدوركم عواطف التضامن والحنان . وتنهزم من وجهكم جيوش الجواسيس الجرارة فتنفتح لكم ابواب بلادكم الفسيحة فتلجوا أي باب شئتم منها آمنين مطمئنين . وانتم حيث كنتم في مأمن من واشٍ مكَّار وآمرٍ غدَّار . ثم قال لهم وتستثمرون الارض فينمو زرعكم ويسرح ضرعكم . وتترقى صناعتكم وتروج تجارتكم . تعلّمون وتتعلمون وتكتبون وتتغنَّون بالشعر على أي وتر شئتم . وتمحى آثار الذلة والمسكنة فيرمقكم الاجنبي بعين الاعظام بعد ان كان يخالكم طعمة سهلة المساغ . إي نعم لو جاء العثمانيين نبي بمثل هذا النبإ العظيم لهزأوا به وقالوا انا ولئن كنت

صادقاً فلسنا لك بمؤمنين . لقد اكثرت علينا من نعم الله فهات بعض ما تمنّينا به وعهد الله اننا به راضون

ولا يظننّ القارئ اللبيب اننا نشير في ما تقدم الى ان الجزع بلغ من ابناء الوطن العثمانيين مبلغ اليأس فباتوا يخالون الرقيّ والاصلاح من المستحيلات . أو يحسبون ان للدول ادواراً وقد انقضى من بينهنّ دور دولتهم الباسلة . وكيف يُرمى أبناء الدولة العثمانية بمثل هذا الخمول وكل مراقب مطلع يعلم ان مبدأ هذه النهضة يرجع الى عهد السلطان سليم الثالث ذلك السلطان العظيم الذي لم يقدره التاريخ حق قدره . وان اربعين سنة خلون والاحرار البواسل يجودون بالمال والارواح

اذا مات منهم سيد قام سيد قؤول لما قال الكرام فعول

وما زالوا يناضلون ويكافحون ويتدبرون الامور بالعنف واللين حتى انتشر مذهبهم فوجد مستقراً فسيحاً في اعماق الصدور وأي صدر لا يتلقى بملء البشر مثل هذا الضيف الجليل

ولسنا بناشرين حقيقة مجهولة اذا قلنا انه لم يبق في البلاد العثمانية رجل واحد من أرباب العقول لا يرى وجوب تبدل الحال . ولكن اكثر الناس لا يعلمون ان معظم المرائين الذين كانوا ينادون بالاستبداد على رؤوس الاشهاد كانوا في حظيرة كتمانهم أشد الناس تذمراً من هذا المصير . فلما طفحت الكأس وعم البلاء

أصبح معظم أبناء البلاد على رأي واحد حتى اذا خلوت بوالٍ معتزّ بامارته، أو وزير متربع في دست وزارته، وأمن جانبك وكاشفك بما يكنه صدره رأيت انكما متفقان رأياً ووجداناً . وسترى في ثنايا السطور التالية شواهد وأدلة ساطعة تنبئك ان الامة العثمانية ونريد بها لفيف العثمانيين لم تشرف على الموت في زمن من الازمان . ولكنه لم يكن يهجس في صدر احد هاجس هذا الانقلاب السريع . فلقد فازت أمم من قبلنا بدستور كدستورنا ولكنه ليس في تاريخ واحدة منهن بلوغ هذه الامنية في منتهى أدوارها بمثل هذه السرعة ومثل هذه الحنكة وهذا التدبير بدون اراقة دم من الدماء الطاهرة والدنسة . ولا يعترض على هذا القول بما كان من أمر الدستور الياباني فليست هناك حقوق نهضت الامة تطالب بها وانما هو قبس حكمة وذكاء اتقد في رؤوس أولي الامر منها وهم أرقى علماً وعقلاً وأدباً من محكوميهم فجردوا أنفسهم بلامنازع من سلطتهم المطلقة وجادوا بها على أمتهم المتحدة العنصر فافلحوا . وهي الحادثة الوحيدة في بابها مما دوّنه التاريخ منذ قال أبو بكر الصديق والخليفة عمر على منبر الخطابة : « يا أيها الناس من رأى منكم فيّ اعوجاجاً فليقومه »

أما في الممالك العثمانية فليست الحالة على ما تقدم فان لدينا سلطتين متنازعتين وعناصر مختلفة وامماً متباعدة بقوة الاغراء حتى

لقد كنت تخال ان جميع العوامل داخل البلاد وخارجها متفقة على ملاشاة هذه الامة بل تلك الامم المتخاذلة . واذا رجعت الى تاريخ وضع النظام الدستوري في البلاد الاوروبية منذ قام كرومويل في انكلترا الى أيام الثورة الفرنسوية الى يومنا هذا بدا لك ان سفن الاصلاح سارت على بحار الدماء حتى في البلاد التي لم يكن فيها من اسباب الشقاق والنفاق بعض ما ابتلانا الله به في الآونة الاخيرة . وهذه روسيا وايران لا تزال دماء زعماء الحرية فيها تتدفق سيلاً طامياً . فحيَّا الله نيازي وحيَّا الله انور وحيا الله الجيش العثماني وانصاره وحيًّا جمعية الاتحاد والترقي وحيا الله كل ذي سلطة أو نفوذ جرد نفسه منهما وأولاهما أمته . وهم وان دوّن التاريخ معجزتهم هذه إعجوبة القرن العشرين فسيثبت بدون ريب ان الامة على تمام الاهبة والاستعداد لتلقي هذا الانقلاب

وليس من غرضنا في هذه العجالة ان ندوّن تفصيلاً تاريخ هذه النهضة الاخيرة منذ اذكى شهيد الطائف[1] جذوة نارها، ونقر طريد مدللي[2] على أوتارها، وتولى نزيل باريس[3] حماية انصارها الى ان تفجر بركانها فدهش له العالمون بهمة بطلي مكدونية أنور ونيازي وانصارهما . فلم يحن للتاريخ ان يستتم اخبار هؤلاء

(١) مدحت باشا (٢) كمال بك (٣) مصطفى فاضل باشا

الاعلام ولا سيما ابناء هذا اليوم . فحسبنا ان نشير الى نبذ متقطعة من اخبارهم . وأوجب من ذلك الآن ان يشد كل منا ازرهم بما طالته يده من قول وعمل حساً ومعنى ليتسنى لهم اتمام هذا البناء الشاهق . ومستقبل الزمن ضمين بتدوين اسمائهم واعمالهم بحروف من نور على صفحات الصدور

ولسوف يضم التاريخ اليهم عشرات بل مئات وألوفاً من ضحايا الحرية ومنكوبيها وسواء في ذلك من مات شهيداً طريداً كسعاوي قتيل الاستانة، وسليمان سجين بغداد، وغانم منفي باريس، والكواكبي شريد مصر . ومن لا يزال فيه رمق حياة يرجو العثمانيون ان يفسح الله في اجله ويعليه مناراً كفؤاد الشامي، وسعيد اليماني — نسبة الى منفاهما ورضا وصباح الدين الباريسيين نسبة الى دار اغترابهما

وانه ليسوءنا ان يكون بين ظهرانينا الى جانب هؤلاء فئة قليلة ممن تثقفوا على ايديهم فاشرأبت اليهم الاعناق ثم عبث الطمع بافئدتهم فخانوا رفاقهم وكانوا عليهم بلاءً ما كان اشده لو لم يضرب الله على ايديهم هذه الضربة القاضية . وحسبهم عقاباً ما يحيق بهم اليوم من الخيبة وضروب المهانة

فاذا جاز اليوم للمؤرخ ان يتأنى في تدوين الوقائع ريثما يستجمع مادته وتمر فترة تسكن في خلالها ثورات الفكرة

المضطربة فانه يجب على كل ذي بضاعة من العثمانيين ان يزجيها لديهم على عجل فانما الفلاح بالتعاون والتضامن . وخير البر عاجله

واننا وان لم نكن من ابناء السياسات فان علينا فرضاً يترتب قضاؤه وهـذه دلونا بين الدلاء . ولقد رأينا ان نجمع على هـذه الصفحات بعض ما وعته الذاكرة فيما مضى بالنظر الى الدستور العثماني وما يتراءى لنا من نتائجه المقبلة وما ينال العثمانيين من رغد العيش بخفوق اعلام الحرية فوق رؤوسهم، وفك عقال العقل والفكر واللسان ، واطلاق عنان التجارة والصناعة ، وتمهيد سبل الزراعة واستخراج ثروة البلاد الدفينة تحت التراب والمنبوذة على رؤوس الجبال ، وما ينجم عنه من اصلاح جباية الاموال ومالية البلاد

هذا ما توخينا بسطه الآن لاخواننا العثمانيين ولسوف يرى العالم بعون الله انهم اذا صانوا دستورهم ولا نخالهم الا صائنيه سيكون لدولتهم شأن تنقلب بوجهه سياسة العالم



الدستور القديم

توفي السلطان سليمان الثاني القانوني سنة ١٥٦٦ عن ملك ضخم لم يكد يجتمع لاحد من قبله ولا من بعده وغادر الدولة العثمانية في ابان مجدها واوج عظمتها فلم يحسن خلفاؤه تعقب خطواته وتألبت عليها القوى الخارجية وتناوبت فيها الفتن الداخلية فأصابها ما يصيب كل دولة بلغت هذا الشأو العظيم . فتناثر ما تناثر من لآلئ ذلك العقد النظيم . وتولى السلطان سليم الثالث سنة ١٧٨٩ والبلاد في اختلال والاحكام في تراخٍ والانكشارية مستبدون بالسلاطين يولّون ويخلعون ويقتلون والبلاد في فوضى كادت تمزق شملها . فهاجه حب الاصلاح وصرّح بميله الى ترتيب الجند على النمط الحديث فبطشوا به فمات والاصلاح في مهده

على ان تلك الفكرة لم تمت فتلقاها السلطان محمود وعمد الى الاصلاح من وجهتيه الملكية والعسكرية فبدد جند الانكشارية واحل محلهم جيشاً منظماً واخذ يبعث بمنشورات الاصلاح الى الولاة والحكام ولكنه توفى ولم يستتم من فروع الاصلاح الا تنظيم الجند تنظيماً غير تام

وكانت روح الاصلاح قد انتشرت بين فئة من رجال الدولة

فاقاموا يبثونها على عهد خلفيه السلطان عبد المجيد والسلطان عبد العزيز واعظمهم شأناً وأطولهم يداً رشيد وعالي وفؤاد

وما كاد يجلس السلطان عبد المجيد على سرير السلطنة حتى اذاع خط الكلخانة المشهور سنة ١٨٣٩ – في ٢٦ شعبان سنة ١٢٥٥ ﻫ فكانت له ضجة اهتزت لها اوربا

وأخذ رجال الدولة من ذلك الحين ينظّمون القوانين الخاصة لكل فرع من فروع الادارة والقضاء

وكان أعظم تلك الاعمال شأناً مجلة الاحكام العدلية لانه غير خاف ان جميع الاحكام كانت تجري على مقتضى القواعد الشرعية. واذ كانت كتب الفقه تعد بالالوف وبين الائمة خلاف في بعض الاحوال كان لا بدّ من توحيد تفسير النصوص ووضع مأخذ سهل يستند اليه في الاحكام . فعهد أولاً بالنظر في ذلك الى رهط من صفوة العلماء ثم أُلّفت لجنة كان منها جودت باشا ناظر ديوان الاحكام العدلية وبعض أعضاء ذلك الديوان وأعضاء شورى الدولة والاوقاف وغيرهم من العلماء كعلاء الدين ابن عابدين فنظّموا ذلك الكتاب الجليل وأصدر السلطان عبد العزيز الارادة السنية بشأنه سنة ١٢٨٩ ﻫ

ولكنهم كانوا أثناء ذلك العمل وقبله وبعده يعهدون الى لجان أخرى بتنظيم القوانين الخاصة فنشر قانون الاراضي سنة ١٢٧٤

وقانون الطابو سنة ١٢٧٥ وقانون الجزا سنة ١٢٧٤ وقانون التجارة سنة ١٢٨٨ وكانوا في كل ذلك ينقلون عن القوانين الاوربية وخصوصاً الفرنسوية ناظرين الى عدم مخالفة النصوص الشرعية

ونظروا في سائر ما يقتضيه سير الحضارة والى ماجرت دول اوروبا فيه على قوانين خاصة فوضعوا قانون التابعية العثمانية. وقانون ترتيب المحاكم الشرعية والمحاكم النظامية والمحاكم التجارية ونظامات الادارة الملكية ونظام ادارة الولايات ونظام شورى الدولة ووضعوا نظاماً للمعارف ونظاماً للمطبوعات ونظامات أخرى للمطابع والطبع وحقوق التأليف والترجمة. ونظاماً للرسومات وآخر للمعادن وآخر للطرق والمعابر. والحاصل انهم لم يكادوا يغادروا شيئاً من لوازم ادارة الملك حتى دونوا له قانوناً

فمجموع هذه القوانين والنظامات هو الذي كان معروفاً في بلاد الدولة العثمانية باسم الدستور (Code)

ولكن الحكم كان لا يزال مطلقاً وارادة السلطان فيه فوق كل ارادة ينقض ويثبت ما شاء من الاحكام وليس ثمة قيد

ففي المدة الوجيزة التي لبث فيها السلطان مراد على سرير الملك كان مدحت وانصاره قد انتهوا من اعداد القانون الاساسي وترتيب نظام مجلس المبعوثان فما تولى جلالة السلطان عبد الحميد حتى كانت قوانين الدولة محكمة الوضع والترتيب تضارع بحسن

تنسيقها واحكام موادها قوانين أرقى الدول الاوربية لا حاجة باقية بها الا الى انفاذ ذلك القانون فبادر جلالته الى التصديق عليه فتم للدولة دستور لا يفوقه دستور واستبشر الناس بالاصلاح والفلاح

على انه لم يكد ينتظم مجلس المبعوثان وينظر في شؤون الدولة حتى صدرت الارادة السنية بفضه فتقوضت كل اركان ذلك البناء وابتليت الامة بطور استبداد جديد لم تعهد نظيره حتى في عصور الظلمات



الدستور والاستبداد

قد كان الدستور كما تقدم عبارة عن مجموع القوانين والاحكام التي تعاقب على وضعها رجال الدولة حتى استجمعت الكلي والجزئي من حقوق الحاكم والمحكوم ورتبت أصول المحاكمات وفصلت قواعد القضاء وعينت جميع ما يضمن اجراء العدل وحفظ الامن وبسط الحرية واستخراج موارد الثروة ثم كان من جملة اجزائه القانون الاساسي الذي ظلّ دعاة الاصلاح يطالبون بانفاذه ثلاثين عاماً وتزيد

وان هذا الدستور على حسن وضعه وتنسيقه لو عمل به لما كان بنا الآن حاجة الى هذا الانقلاب العظيم بل جل ما كنا نرجوه ان تعدل بعض مواده وتزاد وتنقص حيناً بعد حين على ما يقتضيه الزمن وحالة الترقي العام

اما الدستور الذي نحن في صدده وقد ارتج العالم لاعلانه فهو الحكم النيابي على الطرز الحديث حيث تحكم الامة نفسها بنفسها مع حفظ حقوق الخليفة الاعظم وتتضافر على انفاذ مضمون الدستور النظامي حرفاً حرفاً

فدستورنا الجديد ليس اذاً الا نفس دستورنا القديم ولافرق

بينهما الا ان الاستبداد حال دون انفاذه فيما مضى واما الآن فهو نافذ بقوة الامة

وليس الحكم الدستوري بالبدعة الحديثة في تاريخ الامم فقد كانت له شؤون متقطعة في احكام كثير من دول العصور القديمة كاليونان والرومان ودولة الخلفاء الراشدين ولكنه لم يكن في الغالب على نظام ثابت ولم تعمل به في زمن واحد اكثر من دولة أو دولتين وكان في معظم الاوقات يمنح صاحب السيادة العليا نوعاً من السلطة المطلقة على الافراد وان قيده في بعض الشؤون العامة ولهذا لانظننا مخطئين اذا قلنا ان الحكم الدستوري لم يستتب امره على هذا الشكل ويعم دول الحضارة الا على أثر الثورة الفرنسوية وان كانت الثورة الانكليزية قبل زهاء قرن من أعظم مهيئاته

اما الحكم الاستبدادي فاذا أريد به الحكم المطلق حيث يقبض رجل واحد على أزمة الامور فهو الحكم الذي الفه العالم منذ نشأته . وله بلا ريب مزايا باهرة مع جهل الرعية وذكاء الراعي وعدله . وكم لنا في العهد القديم من مثل برجل واحد نهض بامة كانت قبله خاملة . ولكن كم لنا من جهة أخرى من مثل برجل واحد اضمحلت على يده أمم شتى وأمته منها

أما الآن وقد انتشر لواء العرفان وتعددت أمم الحضارة وعرف كل حقه فلم يبق للحكم المطلق من داع . بل لم يبق للملوك من

فائدة بتحمل التبعات المتعاقبة عليهم والامة ناظرة اليهم بل أصبحوا وقد انقلبت حالة العالم أفرغ بالاً اذا ألقوا ذلك العبء العظيم على كواهل نواب شعوبهم وتيسر لهم التفرغ لكل شاغل مفيد لهم ولمن انضم تحت لوائهم . وهؤلاء الملوك المقيدون بالدستور في هذا الزمن ليسوا بأقل شأناً ممن تقدمهم من ذوي السلطة المستبدة

وليس بخاف أيضاً ان الدولة العثمانية منيت كسائر الدول العظمى بدور انحطاط كاد يودي بها لو لم يقم من رجالها وسلاطينها آونة بعد أخرى فحول سياسة ودهاء يرتقون ويدعمون . ولو لم يكن الاس مكيناً والقوة راسخة وعروق الحياة لاتزال نابضة لعقب ذلك الانحطاط الانحلال الطبيعي الذي لاحياة بعده ولكن لكل مصدر من مصادر الحياة والقوة حداً يقف عنده وقد يكون الداء العضال اشد فتكاً بالجسم الصحيح منه بالجسم العليل ولقد قوي جسم هذه الدولة على تحمل جميع الادواء التي انتابته من حروب وثورات وعبث حكام واختلال احكام وتضافر اعداء وتراخي اصدقاء فصدق فيها قول فؤاد باشا لنابليون الثالث يوم كان سفيراً في باريس : « ان دولتنا اقوى دول الارض اذ تعاقب عليها قرنان ودول أوروبا تهدم من بنائها الشاهق من الخارج ونحن نهدم من الداخل والبناء لا يزال قائماً » . وسواء صحت هذه الرواية أولم تصح فانها تشف عن حقيقة لا ريب فيها

ولـكن هـذا الجسم على قوته الـكامنة وان شئت فقل على ضعفه الظاهر لم يقوَ على تحمل أذية الحـكومة الغابرة بما انتابته من ضروب الظلم في عصر ليس كالعصور السالفة يساق الناس فيه سوقاً ويتخذ فيـه من دون الله اربابٌ ظالمون. فألوية الحـكومات الدستورية قد انتشرت من أقصى المغرب الى اقصى المشرق وكواكب الحرية قد سطعت حولنا واكتنفتنا من الجهات الاربع هذا وأرباب الامر فينا يودون بقاءنا في ظلمة مدلهمة

فلم يبقَ بعد هـذا المصير الا أحد أمرين إما الموت العاجل وهو ما لم نبلغه بعد بانحطاط قوانا وإما تجديد قوى الحياة وهو ما يتيسر لنا والحمد لله بهمة دعاةالحرية — وربما صحت الاجسام بالعلل

فمعظم الشكوى اذاً ليست من الاستبداد بمعنى الحكم المطلق وان كانت دولة هذا الحـكم قد دالت وانما هي من ذلك الاستبداد بمعنى الحـكم الجائر الذي اباح الموبقات واستباح المحرمات —استبدادٌ حكّم الانذال برقاب الرجال فنكس الرؤوس وذلل النفوس — استبداد لا مرشد له الا التعنت عن هوى تميل به النفس الى حيث لاتدري. ولا شرع له ولا وازع يحلل اليوم مايحرمه غداً— استبداد يتمثل لنفسه بنفسه تصادر به الاموال بغـير حساب ويبطش المجرمون بالابرياء بغير عقاب. اذا آنس نقمة من الناس عليه عمد الى التفريق بينهم فأثار فيهم ثائرة التعصب الذميم فضرب بعضهم

ببعض حتى اذا غفلوا عن مظالمه حيناً ثم استفاقوا من غفلتهم ورجعوا الى التظلم منه خلق لهم ملهاة أخرى يلتهون بها عنه — استبداد تقتسم فيه فئة ضئيلة أموال الامة فتتنعم بها وتشقى الامة ولا حرج على تلك الفئة ولا جناح . تستولي على موارد ثروة البلاد من حرث وغاب ومنجم وتستلب الامتيازات كأنما كل ذلك من تراث آبائها واجدادها . اذا اكتشف مجتهد منجماً وقال للحكومة أنا صاحب الحق باستخراجه فلكم سهمكم ولي سهمي بمقتضى النظام قال رجال المابين بل هو هبة استوهبها احدنا فاذهب خاسراً . واذا قضى باحث زمناً فدرس مشروعاً وقال هذا نتاج بحث طويل ولديّ جميع الوسائل العلمية والمالية للقيام به بهذه الشروط وذلك السهم منه للحكومة قالوا بل هو لنا فأخذوه بلا شرط ولا بدل . تلك هي الفئة الظالمة التي كانت تتسبب بالنفي والسجن والقتل فتفتك بمن شاءت كما شاءت فرادى وعشرات ومئات وألوفاً ولا يشق شغاف قلبها الصلد عويل أيّم ولا صراخ يتيم . وتحول بين الراعي ورعيته وبيدها سيف من النقمة مسلول حتى على رؤوس افرادها

ذلك هو الاستبداد الذي نقصده في بحثنا وهو الذي احرج صدور العثمانيين فسهل لهم المنية في سبيل الحرية حتى اذا نالوها بجهاد جيشهم الباسل ودعاتهم الاماثل تصاعد صدى حماسهم فخرق لب الاثير

الدستور والحرية

يقول ارباب السياسة لا يسوغ اطلاق الحرية دفعة واحدة لامة طال عليها عهد الاستعباد لئلا تستحكم الفوضى وينتهي الامر باستبداد الجماعات وهو أشد بلاء من استبداد الرجل الفرد . ولكن هذا القول مع ما فيه من الصواب لا ينطبق على الامة العثمانية فانها ليست بالامة التي رسفت دهراً بقيد الرق . بل كانت منذ تألفت تحت لواء السلطان عثمان الغازي أمماً فاتحة تحت زعامة العنصر التركي وشعوباً مكافحة ذوداً عن حياضها . وان جميع العناصر التي انضمت تحت لوائها كانت من ذوات الماضي المجيد . وان كثيرين من سلاطينها كانوا ذوي برّ برعايتهم . وهذا السلطان محمد الفاتح مع ما يعزى اليه من القسوة قد خول رعاياه المسيحيين والاسرائيليين من حرية الدين والتصرف بالاحوال الشخصية ما يسجل له فخاراً مؤبداً وان عده كثيرون خرقاً في السياسة بالنظر الى أحوال ذلك الزمان . ثم ان كثيراً من تلك الشعوب والقبائل حفظ استقلاله الاداري الداخلي ازماناً طوالاً أو تمتع بامتيازات ممنوحة أو مسموح بها حتى هذا اليوم كالكرد والعرب المقيمين في اطراف الولايات واللبنانيين والنساطرة. ثم اذا نظرت الى طبيعة

البلاد رأيت ان معظمها لا يصلح للاستعباد . فسكان الجبال قساةٌ عتاة معتزون بمعتصمهم فلا يصلحون عبيداً مهما طال بهم أمر الخضوع والخنوع . وقل مثل ذلك في سكان البوادي والقفار فهم أشد الناس تشبثاً بالحرية يفتدونها بأموالهم وأرواحهم. وأما سكان الثغور والحواضر فقد فاض على معظمهم نور العلم والتهذيب وعرفوا بما شاهدوا وقرأوا وخالطوا من الاجانب ان ذلك الكنز الثمين بل تلك الجوهرة الفرد اعلى قيمة من كل ما خلق الله .فالرق لا يصلح الا للخامل الجاهل وهما تِربان لم يجتمعا في عنصر من عناصر العثمانيين . واضف الى هذا سياسة التفريق فانها على شؤمها كانت لها مزية حفظ نشاط هذه الامم المتباغضة في الامس المتحابة اليوم فباد العنصر الذليل او اندمج في غيره ولم يبق غير النشيط الصالح للذود عن حوض نفسه ولو الى حين . فكلهم الآن طالب حرية وعالم بحقه . وكل طالب حرية عالم بحقه نشط من عقاله فهو اهل لها حتى ولو طال عليه زمن الجور والتعسف ومن ذا الذي يزعم اليوم انه لو أتيح للبولونيين مثلاً ان يؤلفوا دولة منهم لا يتسنى لهم ذلك مع ما برّح بهم من المحن المتواليات ورزايا التقسيم ثم ان هذه الجرثومة الزكية ليست بنت يومها ولكنها متأصلة في نفوس جميع شبانهم وكهولهم وكثيرين من شيوخهم حتى مخدراتهم اللائي كن يتحن أمس سرّاً وبرزن اليوم جهراً بعد اعلان الدستور يحملن اعلام الفوز

المبين . ولقد طالما حنّ العثمانيون الى الدستور وترنموا بذكره قبل الآن . وان شدة الضغط التي ألجأتهم الى الصمت في الفترة الغابرة انما كان زمنها زمن جثوم لوثوب وليس زمن استكانة لاستماتة. واذا اجتزأنا من التاريخ ببضعة عقود من السنين اتضح انه منذ اصدر السلطان عبدالمجيد الخط الهمايوني المعروف بخط كلخانه مازال الشعب العثماني يتحفز لمثل هذه الوثبة الخطيرة . ولقد خطا في هذا السبيل معظم خطواته حتى كاد يستتب له الامر بنفوذ مدحت وحسين عوني ورشدي واذا بجيش الجواسيس قد دهمه قبل ان تنضج ثمرة غرسه واقتلع تلك الشجرة فتناول مريدوهم بذورها فغرست ونمت اشجاراً

انظر الآن الى ما شئت من اسباب الشكوى وارجع معي الى ما قبل اربعين أو ثلاثين بل خمسة وعشرين أو عشرين عاماً وقابل زمناً بزمن ترَ اننا جرينا القهقرى جرياً حثيثاً وخالفنا بالقسر عنا كل امم الارض



الحرية الشخصية

ان اول ما يحرص عليه المرء حرية شخصه فلقد كانت لعهد مضى مطلقة يسرح المرء ويمرح ايان شاء ويخالط من شاء ويقول ويعمل ما شاء مما لا ينال سواه بأذى . وهو في كل ذلك لا يخشى وشي رقيب أو مفاجئ . فاذا بنا والعيون قد بثت والارصاد قد سدت السبل ويا لشقاء من ألقاه سوء البخت بين براثن تلك الذئاب . يبيت المرء في منزله وعياله الى جانبه وهو غير آمن من ان يفاجئه طارق في دياجي الظلام فيختطفه من بين ذويه . اذا خطا نظر الى ما وراءه خشية ان يكون له من ظله رقيب عليه . واذا تكلم مع صديق أو رفيق على قارعة الطريق تراه يكاد يهمس همساً خوف ان تبـدر منه كلمة تحتمل التأويل كأن القسطنطينية رجعت الى زمن كاليغولا في رومة والطير نزلت على رؤوس الناس كبيرهم وصغيرهم

وانه لا يكثر على كل من اقام زمناً في الاستانة أو بعض مدن الولايات ان يؤلف مجلداً في ما سمع أو رأى من غرائب الوشاة . ودونك مثالاً واحداً من اخف ما لقي الابرياء من شرهم

عرفت شاباً من أبناء التجار قصد الاستانة لعمل مالي وكان

كثير التردد عليّ فما مضت بضعة أيام الا وأتاني يوماً ووراءه ذنبان . واني مع كل ما خبرت ووعيت من أخبار الجواسيس عجبت ان يكون صاحبي موضع ريبة فيجر وراءه هذين الذيلين . فلما جاس وبقي الرجلان على مقربة من الباب سألته عما بدا منه حتى بات موضع التهمة فاقسم انه لا يعلم سبباً وانه لم يشعر الا وهذان يتعقبانه ويرافقانه كظله فاذا مشى مشيا واذا دخل بيتاً انتظراه لدى الباب واذا ركب عربة أو باخرة من بواخر البوسفور ركبا. فظللنا نسعى أشهراً لنقف على السبب الى ان أخذت الشفقة يوماً ناظر الضابطة فاطلعه على ورقة مرفوعة الى المابين من واش يقول فيها ان فلاناً أي صاحبنا أتى الاستانة قصد استطلاع أحوالها قبل ان يذهب الى باريس وينشئ جريدة ملؤها الطعن في الدولة وهو ذو عزوة كبيرة ومقام كبير وله شهرة عظيمة بين كتاب العصر . واني لو نفع القسم وقتئذ لاقسمت ان فلاناً هذا لا يعرف ما الكتابة في الجرائد ولم يخط بحياته فيها حرفاً ولا أثر لتلك العزوة وذلك المقام . ولم تخطر له تلك الفعلة ببال ولو في المنام وانما هي مكيدة نصبها له رجل طمع في مشاركته في تجارته فلما ابى ان يشركه معه عمد الى هذا الانتقام الدنيء . وهكذا بقي صاحبنا سنوات يتظلم وما من سميع . فلا يفرج عنه فيرجع الى بلده ولا يؤذن له بعمل يرتزق منه . وأنت تعلم ما تأول اليه حاله بعد سنوات

وانها مع هذا مصيبة لا تعد من كبار المصائب اذ لم يؤذ الرجل بجسده ولم يصادر بماله . وهذه القيود والاغلال في اعماق السجون تكاد تشتبك غيظاً لكثرة ما اثقلتها المعاصم والاقدام . وهذه بنغازي وبعض المدن النائية في اطراف السلطنة تضج منتحبة لما ترى من شقاء المبعدين . بل هذا البوسفور يوشك ان يفور تلهفاً على تلك الجثث فيقذف بها الى ثغريه خشية ان تبيت دفينة في بطون الحيتان . فاذا كانت تلك حالتنا بالامس فمن ذا الذي يعجب لخروج الناس افواجاً من ديارٍ يحسبونها دار شقاء . ومن ذا الذي يجهل ما يكون بعد نشر راية الحرية من تهافتهم اليها تهافت الابناء الى الام الرؤوم . وما يكون من رواج التجارة ونمو الزراعة وارتقاء الصناعة ومن الاقبال على جميع الاعمال بعد ذلك الاعتقال

بل من ذا الذي لا يرى مذ الآن انه سيقوم منا في الغد جهابذة وفحول في العلم والسياسة والادارة والقضاء فيأتون ما يأتيه اندادهم في اعظم الدول شأناً . فالامة العثمانية لم تعدم في كل عصر من العصور امثال هؤلاء النوابغ . وان عدمت بروزهم للعيان في هذه الفترة فلانه كان من الجناية ان ينبغ في البلاد العثمانية رجل ذو شأن ويظهر له اثر مذكور على ألسنة الناس فاذا مست الحاجة الى ابراز آية من آيات عقلهِ او بأسهِ فسح له المجال حتى يستتم عمله ثم ينبذ نبذ النواة لا يباح لمواطنيه المعجبين به من ابناء امته ان

يوافوه بشيء من مظاهر الاجلال والاكرام حتى لقد تحرم البلاد من بقية مافيه من الهمة والذكاء . واذا اردت مثالاً على ذلك فارجع بفكرك الى عثمان بطل بلاونا وادهم بطل لاريسا بل راجع بنظرك خطاب اللرد سولسبري في مجلس العموم الانكليزي سنة ١٨٩٤ يوم وفاة رستم باشا سفيراً في لندن اذ قام اللُرْد مؤبناً فقال «ان الفقيد كان من عظام الرجال ومن امثال عالي وفؤاد وان القوم ليخطئون خطأ مبيناً اذا زعموا ان تركيا خالية الآن من الرجال العظام فانها لم تخلُ منهم في زمن . فاذا خلتموها خالية منهم منذ سنوات فان لذلك اسباباً قاهرةً» – ذلك مفاد ما قاله رئيس وزراء الانكليز فان هو لم يصرح سياسة بتلك الاسباب فكلنا عالمٌ بها متأوّه اسيف

اما الآن وقد قضي الامر ونال بل استعاد العثمانيون حريتهم فليس بالكثير عليهم ان يبرزوا من ذوي الهمم منهم وينبتوا من ناشئتهم كل قوّال فعّال



حرية الصحافة

وإذا كان هذا شأن الحرية الشخصية فما عسى ان يكون شأن حرية الصحافة تلك الآلة الحيَّة الناطقة بلسان الأمة المنبهة الافكار المرشدة الى الاصلاح المشيرة الى مواطن الخلل المنادية بحيّ على الفلاح. فانه وان كان القانون الأساسي قد أطلق سراحها على ما اتسع له وقتئذٍ وأنشئ لها نظام مخصوص حوالي سنة ١٢٨١ ﻫ يوسع لها في حرية البحث والنقد فقد أصبحت بعد ذلك تحت مراقبة حوّلتها الى أبواق تمجيد وأغوال تهديد. يضطرب أصحابها خوفاً لكلمة تبدر منهم أو من محرريهم يتأولها أولو الأمر على غير ما ارادته الجريدة. وما كانت رقابة المراقبين وان اطلعوا على جميع ما يكتب قبل الطبع لتخفف من أخطار العقاب. فكم من جريدة ألغيت أو أوقفت لزمن محدود أو غير محدود لخبر روته عن جرائد أوربا ينبئ بمقتل وزير في الصين أو أمير في أفريقيا أو اختراع ذكرته لآلة تطير في الهوآء أو غواصة تسير تحت الماء. بل كم من مرة فاجأ الجريدة الأمر « بتعطيلها » وظل صاحبها يبحث أشهراً فلا يعلم لذلك سبباً غير « الإيجاب » بل كم من مرة انقضّت الصواعق على رأس الصحافي لجهله ان هذه الكلمة أو تلك قد انتزعت بحكم

الاستبداد من معجم الالفاظ الكتابية — كالقانون الأساسي — والخلع وما أشتق منه — والجمهورية — والديناميت — والثورة — والانصاف — والحرية — أو ان عبارة أو جملة وجب حذفها من أبواب الانشاء كقولك — العدل أساس الملك — والظلم مرتعه وخيم — والحرية منتهى غايات الأمم — بل الويل كل الويل لمن ذكر حرفاً عُرف به عَلَمٌ مشهور — كعبد العزيز — ومراد — ورشاد — بل كم لنا بازاء هذه المبكيات من طوارق المضحكات . خذ أعلام الاسماء والقاب الأسر في البلاد ترَ مثلاً أسرة السلطاني معروفة في سوريا ومنها رجال من ذوي المكانة بين مأموري الدولة . أفيتصور ذو عقل ان كتابة اللقب على هذا الهجاء تهدم قوام المملكة فيحوّل رضي أصحابه أم غضبوا الى «سلتاني» مرة والى «سلطا» مرةً أخرى. ومن ذا الذي يقول بخراب الملك اذا دعا أحدهم رجلاً باسمه وقد سمي «خليفة» وهو اسم بات على شيوعهِ من الاسماء المحظور استعمالها . ومن ذا الذي يصدّق لو لم نثبت الحقيقة صدق المقال ان بيت «الشوكتلي» المعروف بحلب لا تجسر جريدة ولا مقام رسمي ان يذكره بهذا اللفظ حتى اضطر أصحابه الى اتخاذ لقب النحاس بدلاً منه

اما المقالات السياسية فباتت من امثال العنقاء تذكر ولا ترى وبات العثمانيون وهم يقرأون في جرائدهم القليلة نتفاً من اخبار

الدول ويقرأون شيئاً عن سياسة بلادهم وادارتها الا ما أشير به الى نعمة سلطانية أو تعيين وال أو مأمور أو ادعية متوالية تشف عن غلّ شدّ في اعناق الصحافيين وقادهم وهم صاغرون في سبيل لا يتاح لهم ان يلفتوا وهم سائرون فيه يميناً وشمالاً . ولهذا لم يكن في البلاد من ينكر عليهم هذا الصغار بل كان الناس ينظرون اليهم نظر الاسير المشفق على أسير آخر بازائه . ولقد طالما شاقنا استطلاع الاخبار فتسقطناها من بريد اجنبي أو جريدة في سفارة أو دار قنصلية . وسئم الناس قراءة جرائد بلادهم كما سئم محرروها كتابتها على هذا النهج . وفي ذلك يقول أحد ادباء الاتراك متهكماً بتوريد لطيف على كل جرائد الاستانة وقتئذ :

سعادت چون طريق كذب دايم ارتكاب ايلر
اوصاندق ترجمانك شيوهٔ طرز اداسندن
مروت ثروت آساهيسي قالقسون اورطه‌دن ديركن
ينه بر ... ظهور ايتدي صباحك ما وراسندن

وليس هذا كل البلاء اذ لو حرمت علينا الكتابة في جرائدنا وأبيحت لنا قراءة الصحف المنتشرة في سائر الاقطار لقلنا شرّ أهون من شرين ولكن هيهات . حظرت المراقبة قراءة كثير من الجرائد المنتشرة في كل بلاد الله ولاسيما ما صدر في مصر أصدق البلاد ولاء للخلافة الاسلامية والامة العثمانية كأن معظم البلاء وقع

على رؤوس الأصدقاء . دونك اصحاب الجرائد في مصر فاسألهم ينبئوك بما عانوا من المشقة في السعي بالافراج عن جرائدهم واباحة قراءتها للعثمانيين في بلادهم . دع المقطم وماجرى على خطته ولنلتمس لرجال المابين عذراً في الحقد عليه لقيامه على نقد اعمالهم والتنديد بهم بل فلنسبل ستراً على ما انزلوا على القلوب من الرهبة منه وما تفننوا به من ضروب العذاب الاليم عقاباً لمن وجد في بيته اوعُثر بين ثيابه ولو على قطعة منه اتخذها لفافة لمنديلهِ وهو على سفر من مصر كما جرى لذلك الشامي الاميّ . فسل اهل دمشق الشام كافة يخبروك كم لبث في السجن وكم قاسى من انواع العذاب لتلك الجريمة وهو لم يقرأ بحياته جريدة ولا كتاباً . بل التقط تلك الورقة وهو لا يعلم اهي صحيفة من كتاب او كشف حساب . دع اذاً اشباه المقطم وانظر المؤيد واللواء فهل عرفت قبلهما او بعدهما صحيفة اشد تمسكاً بالعرش العثماني واعظم تفانياً في خدمته فهل اتيح لهما ارسال جريدتيهما الى البلاد العثمانية مع ما فيها من كثرة طلابهما . واني لا ازال اذكر حديثاً لي مع مؤسس اللواء اذ سألني احد اصدقائي من باشاوات العراق ان امكنه من الحصول على جريدة اللواء فقال لي رحمه الله يسوءني ان يكون ذلك امراً محظوراً . ولست اعلم له سبباً . كل هذا لان اللواء والمؤيَّد يرددان على صفحاتهما ذكر الحرية والدستور والاستقلال والمجلس النيابي وما اشبه من الالفاظ التي

تنبه الشعور في عرف الناس « وتخدش الاذهان » في عرف رجال المـابين

ذلك كان جزاء المحبين للحكومة الغابرة القائمين على ولائها من ارباب الجرائد سواء كانوا في قبضة يدها او خارج سلطتها . واما اعداؤها ومبغضوها ممن لا تستطيع ان تتناولهم يد جبروتها فهم هم الذين كانوا بفضل كرمها الحاتمي في نعيم مقيم تنفحهم بالالوف الصفر المجبوة بالدرهم والفلس من الارملة والعامل الكدّاح إلجاماً لالسنتهم النمامة وما كانوا بكافّين عنها الا حتى حين . ولقد اغدقت عليهم من النعم ما لو احسنت ببعضه على بعض جرائدها في بلادها لكان لها اشباه التيمس والتان . ولقد طالما ذاعت عنها تلك المكرمة بين الناس حتى كادت تبيد مزايا جرائد الاحرار المطالبين بالدستور والباذلين في سبيله كل ما عزّ وهان لاختلاط الحابل بالنابل وبات كل افّاقٍ شريد يطمع في اتخاذ السباب والنميمة مهنة يستهطل بها غيثاً من النضار . ولو لم يقم مختار باشا في مصر وغيره في غيرها يصيحون ويصخبون سنين طوالاً في وجه هذا السيل الجارف لما خف اندفاعه حتى الآن ولكانت ضاقت موارد الدولة عن ارضاء كل افاك زنيم

ولو بقي نصراء الاستبداد على منصات رفعتهم حتى الآن لقالوا بلا ريب مدافعين ان البلاد لم تألف الحرية فاطلاق اقلام الصحافيين

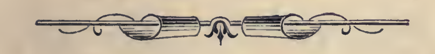
فيها إِثمهُ أكبر من نفعهِ . فقل لهم دفعاً لهذه الفريَّة تلك نعمة عمَّ انتشارها فتمتع بها ابناء قلب افريقيا واقاصي آسيا فما بالكم حرمتموها علينا ومع هذا فلسنا على بساطها بالمحدثين. الفناها منذ ستة وثلاثين عاماً ورتعنا في اكناف رياضها وما من رزية اشد على المرء من سلبه نعمة نال منها ولو طرفاً يسيراً . أليس منكم من قرأ جرائد الاستانة وسوريا « كالوقت » « وعبرت » « والجوائب » « والجنة » « والجنان » فرأى فيها ما انفذته من سهام للنقد على اولياء الامر ايام صدارة محمود نديم. ومن من السوريين ابناء ذلك الزمان لايذكر ما صوبتهُ « الجنة » من نبال التقريع وما المّت به افئدة الوزراء من كشف النقاب عن بعض اعمالهم مما لو كتب منها سطراً واحداً في ايامكم لكان اقل جزاءٍ لكاتبه السجن المؤبد . فعلامَ كان سلفاؤكم يرحبون بتلك الكتابة بل علامَ كان بعضهم يحرض الجرائد على الانتباه الى نقد اعمال العمال . وكل كهولنا يذكرون ايام تولى مدحت ولاية سوريا وما كان من عزله متصرفاً لتهمة وجهتها اليه الجنة . فكتب اليه «إما العزل وإما قيامك للوقوف امام المحكمة مع صاحب الجريدة» ولمَّا لم يقوَ على تبرئة نفسهِ اضطُرَّ الى الاستقالة . بل ما بالكم ترتعدون جزعاً لذكر « الثورة » « والقتل » « والخلع » « والدستور » وتأمرون ان نشوه وجه الحقائق فتنقل الينا الاخبار كاذبة . فاذا قُتل ملك ايطاليا امرتم الصحف ان تقول « توفي فجأةً » واذا طُعن

كارنو رئيس جمهورية فرنسا على قارعة الطريق قالت بامر منكم « مات بالنزلة الصدريّة » . فماذا يقول التاريخ بهذه الالاعيب الصبيانيَّة . واي جريدة من جرائد السلطنة ايام خلع المغفور لهما السلطان عبد العزيز والسلطان مراد لم تصدر اياماً بل شهوراً متوالية حافلة بتفصيل اخبار ذلك الانقلاب وما وليه من هجوم حسن الجركسي على الوزراء وقتله الصدر وناظري البحرية والخارجية . وان اكبرتم نقل مثل هذه الاخبار فما بالكم تحظرون علينا ذكر جهاد الروسيين والايرانيين في سبيل الحرية ونيل الدستور

أفلا ترون بدليل ما تقدم ان الأمة لا تطالب بنعمة تسبغونها عليها من فضلكم وانما هو حق سلبتموه بعد ان كانت متمتعة به بفضل اسلافكم . أولا ترون أيضاً ان بقاء صحافتنا حيَّة مع شدة هذا الضغط يبشرها بعمر جديد وشأن في المستقبل مجيد

واننا بلا ريب لا نطمع ولا نود ان نتخطى الآن الى ما وراء المعقول فنثب وثبة واحدة من وهدة المسكنة الاضطرارية الى قمَّة التهوُّر الاختياري بل جُلَّ ما نتمناه ان تُباح لنا رواية الاخبار وترديد صدى الافكار والنظر في شؤون أنفسنا من إلقاء درسٍ مفيد وعرض مقترحٍ جديد ونقدِ عاملٍ وعمل والبحثِ في كل ما من شأنهِ ان يلذَّ ويهذّب ويفيد . وعلى الجملة اطلاق الحرية الى مالا يفضي بها الى مثل الفوضى التي استحكمت بين بعض جرائد

مصر لسنين مضت وهو لا شك ما ينظر اليه دعاة الدستور من الآن بعين الروية والتدبير



حرية التعليم

لئن أطلنا الشكوى من تأخر الصحافة في العهد الماضي فاذا ذكر العلم والتعليم فلا يسعنا الا ان نقول الحق فنعترف انهما رقيا فوق ما كانا عليه درجات. وان معظم العثمانيين أصبحوا ولهم نصيب من العلم ولقد أربى عدد القارئين الكاتبين على عدد الاميين في كثير من الولايات . ولكن المراقب الخبير يعلم ان هذا الترقي هو دون ما كان يجب ان يكون . لان تيار العلم سيل جارف يبدد كل ما اعترض سبيله من عقبات الجهل والخمول ولقد أحاط بنا هذا السيل من كل جوانبنا فما كان في الوسع حده مهما بذل من الجهد فكيف ومعظمنا مستبشر لوفوده ولو تَسَهَّلَت له السبل على مايرام لكفته ثلاثون سنة لازاحة كل نبتٍ خبيث وجلمودٍ معترض في طريقه وجعل البلاد قاصيها ودانيها رياضاً للمعارف نضرة يانعة الفروع دانية القطوف ولكن الخطة التي جرت عليها الحكومة الغابرة حوَّلت بعض حسناته الى سيئات وبعض منافعه الى مضارّ

أرادت ان تتخذ للتعليم في البلاد خطة واحدة وياحبذا الفكرة لو حسن القصد واستقام الاسلوب . وهي فكرة قديمة يرجع أصلها الى أيام السلطان سليم فلم يتسنّ له انفاذها بل كانت من أسباب قيام

جهلة الانكشارية عليه . فتلقاها السلطان محمود ولم تزل تتراوح في رؤوس ذوي الشأن حتى أنشئت المكاتب الاعدادية والرشدية في الولايات وبعض المدارس العالية في الاستانة في زمن السلطان عبد العزيز وزاد عليها جلالة السلطان الحالي مدارس أخرى ولكن طرق التعليم اختلّت بشدّة المراقبة فأُبعد منها كثير من المطالب المفيدة ابعاد المنفيين الى فزان حتى لقد حُرّم على الطلبة درس المهم في التاريخ ولو كان تاريخ بلادهم وشوهت جغرافية البلاد العثمانية وخرائطها فحذف وبُدّل منها من الاسماء ما طالما افتخر سلاطين آل عثمان بدخوله في حيازتهم . وحظر تعليم بل قراءة العلوم الفلسفية والاجتماعية ومنع الاساتذة من القاء أي شرح مفيد على الطلبة حتى حار المعلمون في أمرهم وكانوا وهم يلقون حتى ولو مسألة نحوية أو حسابية صرفاً يخشون ان توجس منهم اشارة الى عدد يوافق أعداد سني الظلم أو فتحة أو كسرة تشير ان الى فتح الاعين وكسر القيود . كل ذلك خشية من ان ينبثق نور العلم في ادمغة التلامذة فيعلمون انهم من بني الانسان وان لأمتهم حقوقاً تجب المطالبة بها . فاذا نال أولو الامر هذه البغية بالنظر الى صغار الطلبة فما كان يا ترى ظنهم بطلاب مدارس الاستانة العالية كالمكتب الملكي والمكتب السلطاني والمدرسة الحربية والمكتب الطبي وجميعهم من الشبان الاذكياء . أو ما عسى ان يقول طلاب

مدرسة الحقوق (وعلم الحقوق من العلوم الفلسفية) اذا اضطر أساتذتهم كل يوم الى تغيير خطة وتبديل نهج والغاء درس الشرائع الرومانية أو غير ذلك مما يزيد المنع عنه رغبة فيه . أو ماذا يقول طلبة المدارس الحربية اذا حظر عليهم ان يبحثوا في أنواع الحكومة وتُنصب لهم المكيدة فيجمع بعض نظارهم نجباء اولئك الشبان المتقدين نيرةً وذكاءً فيسألهم عما يؤثرون من أنواع الحكومات فلا يقول بالحكومة الاستبدادية الاَّ أشدهم دهاءً . واما الباقون الذين يبوحون بما في ضمائرهم فيقولون بالحكومة الدستورية فيطردون ويساقون سوق الانعام الى حيث لا يعلم الاَّ الله . واما ذلك الظالم الناشر تلك الاحبولة فيتخذها ذريعة للوشاية فتغدق عليه النعم ويصعد في سلم الترقي درجات متواليات باسرع ما صعد اسرائيل على سلم جبرائيل

وماكل هذا العنف وذلك الضغط الا ليغشوا على ابصار الشبان فينشئوهم آلة صماء بين ايديهم. ويحجبوا عن ابصارهم ساطع النور فلا ينظروا الى مساوئهم . أجهلوا ان النور اذا انبثق خرق الظلمات ونفذ الى ما وراء حجب الغياهب . وان شدة العنف تحرج حتى الجبان فما عسى ان يكون فعلها بتلك الفتية الباسلة . وهل فاتهم ان دعات الثورات والاصلاح في اوروبا كان معظمهم ممن عني في تربيته على خلاف ما نشأ عليه

بقي لنا كلمة في المدارس الوطنية والمدارس الاجنبية اما الاولى ونعني بها تلك التي شادها اهل البلاد فهي قليلة لم يكن يرجى منها النفع المقصود مع شدة اعتناء اصحابها بها لان اكثرها تحت احكام هذه المراقبة الجائرة . واما المدارس الاجنبية فهي التي كانت متمتعة بحرية حرمت على ما سواها ولقد تهافت عليها الطلاب من كل الملل والنحل تهافت الظمآن على الماء الزلال وبثَّت نور العرفان بين جمهور عظيم من فتياننا ولكننا مع اعترافنا بجزيل ما ثقفت وأفادت لا يسعنا الا القول جهاراً ان فيها ثلمة متسعة لا يمكن سدها الا بتغيير الاحكام فمن من ارباب تلك المدارس على فضله يهتم ببث روح الوطنية بين تلامذته . بل من منهم وهم منتمون لامم متناظرة لا يسعى جهد طاقته في استمالة تلامذته الى امته ودولته . وهكذا نشأ الطلاب على اختلاف في الافكار والمذاهب وهكذا عمل الاجانب بطريق العلم على اقتسام عقولنا كما عملوا بطريق السياسة على اقتسام بلادنا

ومما زاد في البلوى انه لم يكن يؤذن لخريجي المدارس المختلفة بانشاء الاندية وعقد الاجتماعات لتبادل الآراء خوفاً من امتزاج المشارب والاخلاق

على اننا مع شدة هلعنا لعبوس الزمن الماضي لا يسعنا الا استقبال ابتسام الزمن المقبل بملء البشر والسرور اذ توحَّد طرق

التعليم في مدارس الحكومة ويوسع المجال للمدارس الوطنية ويباح تدريس علوم الفلسفة والاجتماع والآداب ويوجب تدريس التاريخ ولا سيما تاريخ البلاد العثمانية وجغرافيتها وتسهل الطرق لطلبة جميع المدارس من أميرية ووطنية وأجنبية لفتح الاندية وعقد لاجتماعات ليشبوا جميعاً على حب التكاتف متعاضدين على العمل يداً واحدةً قياماً بخدمة حقة لهذه الامم التي أصبحت منذ ٢٤ تموز امةً واحدةً



حرية التأليف والقراءة

حبذا لو أتيح لنا ان نذكر للزمن الماضي حسنة بما خص تأليف الكتب المفيدة كما ذكرنا له حسنة من حسنات ترقي العلم وان أتت بالقسر عنه ولقد يعجب المرء لهذا التناقض بين حالة هذين الالفين المتلازمين . ولكنه لدى امعان النظر يتضح انه لم يكن بد من حصول ذلك التباين فان العلم مطلب من مطالب كل نفس حية فكان من المستحيل ايقاف تياره كما تقدم . واما التأليف فهو من خصائص فئة قليلة من الناس وهم ليسوا في الغالب من ذوي السعة واليسار . وأقل ما كان يشوه سمعتهم في آذان ارباب الاستبداد انهم من ذوي الافكار الحرة ليس في آذانهم وقر ولا غشاوة على ابصارهم . وما كان أحوج الظلاَّم الى كسر تلك الاقلام. ولم يكن في الوسع ان يفعلوا ذلك علناً خوف الفضيحة فأسبلوا ستار الرياء وهو شفاف

لم يسنوا نظاماً جديداً قاضياً بالتضييق على الكتابة والكتَّاب بل لجأوا في هذه الحال كالتجائهم في سائر الاحوال الى اصدار الارادات السنية التي كانت تنهزم جنود القوانين من وجهها انهزام الجيش المدحور امام الفاتح المنصور . ولم يكتفوا بانشاء شعب

المعارف في الولايات — وما أحلى هذا الاسم وامرّ الفعل — بل انتهى بهم الامر ان باتوا لا يسمحون بنشر كتاب مالم يعرض على مجلس التفتيش والمعاينة في نفس الاستانة

ويجدر بنا قبل استتمام هذا البحث ان نقول كلمة في صفة هذا المجلس ومهمته . خليط من كل أصناف الناس رفيعهم ووضيعهم عالمهم وجاهلهم . مرتع لبعض صنائع المابين ومنفى لاذكياء الشبان اتقاءً لبادرة منهم . تدفع اليهم الرواتب وبعضم في الاستانة والبعض الآخر في أطراف البلاد وتختلف تلك الرواتب زيادةً ونقصاناً باختلاف منطوق الارادة ونفوذ الواسطة . ولقد شهدت مرةً شيخاً هماً مقبلاً الى نظارة المعارف يتضح لناظره ومحادثهِ انه لا يعرف من المعارف الا اسمها . عين بارادة سنية عضواً لهذا المجلس براتب باهظ ولم يكن لناظر المعارف ولا لسواه سابق خبر بتعيينه فما وسعهم الا احلاله على الرحب والسعة . وبعد هنيهة خرج الي صديق من ذلك المجلس وقال لا حول ولا قوة الا بالله هذا صنيعة فلان

ولم يكن هذا المجلس خلواً من الاعضاء الذين يرجى نفعهم في غير تلك الحظيرة ولكن أقل تغاضٍ منهم عن الاوامر المنهالة عليهم الواحد تلو الآخر يشهر على رؤوسهم سيف النقمةِ

ذلك هو المجلس الذي ألقيت اليه مقاليد المعارف في البلاد العثمانية لا يباح بنشر كتاب أو تأليف مالم يعرض عليه ويتصفحه

فيقرأه بعض أعضائهِ حرفاً حرفاً بأية لغة كانت فيزيدون وينقصون ويحرفون ويبدّلون وربما حذفوا منه صفحات وفصولاً بل ربما حذفوا كلماتٍ وعبارات . فاختلت بحذفها لحمة الكتاب من أوله الى آخره . واذا أسعف الحظ وصدر الاذن بطبع الكتاب خرج الى صاحبه وعلى كل صفحة منه ختم نظارة المعارف والويل للمؤلف الذي يوشى عليه بتغيير حرف منه اثناء الطبع . والادهى من ذلك انك ربما انتظرت لصدور الرخصة زمناً أطول من الزمن الذي قضيته في التأليف ومع هذا فلم يكونوا يجرون على قاعدة واحدة بل كانوا يراعون احوالاً كثيرة تؤثر في حكمهم. ولهذا ربما تجاوزوا لك عن كل ما مر . فقد اتفق لي ان طلبت الرخصة بكتيّب اشبه برسالة منه بكتاب فانتظرت سبعة اشهر وحُذف منه وبُدّل وانا مقيم في الاستانة ثم اتفق ان حصلت على الرخصة بيوم واحد لكتاب مطبوع يتجاوز عدد صفحاته الالف ومائتي صفحة وانا مقيم في مصر ولم يختم ولم يعترض على حرف واحد منه وانا على يقين انه لم يقرأ منه غير عنوانه

فأي مؤلف في الشرق او في الغرب يقدم على تأليف كتاب فيبيضه من اوله الى آخره ثم يعرضه على نظارة المعارف فينتظر كل هذا الزمن . واذا حسن حظه ونال الرخصة يآلي على نفسهِ ان لا يغير منه حرفاً اثناء الطبع مع ان المراجعة والتصحيح يقتضيان النظر

في التنقيح والتعديل والتبديل حتى بعد ترتيب الحروف قبل الطبع واي همة لا ترجع مثبطة امام تلك الحوائل

اما مواضيع المباحث المباح التأليف فيها فلم تكن تشمل شيئاً من المباحث الاخلاقية والاجتماعية والفلسفية وكل ما من شأنه ان يعلي الهمم ويثقف العقول وينير البصائر . وهل بعد هذا من قتل لهمم الكتَّاب

ولذلك اصبحت التآليف المفيدة في الولايات من اشباه المعجزات . ولم يكن كتَّاب الاستانة بانعم بالاً لان المراقبة كانت محدقة بهم من كل جوانبهم وبات الجم الغفير من اطول الكتَّاب يداً يتجاهل وهو عالم ويتصاغر وهو كبير

واما الذين اشتد بهم اليأس فلم يطيقوا الصبر او خف حملهم فلم يكن في البلاد قيود محكمة تربطهم بها فوكلوا امرهم الى الله وغادروا بلادهم وهم يحنون اليها عن بعد ويتربصون الى حلول مثل هذا اليوم السعيد ليعاودوا البلاد افواجاً ومعهم من لذة الاختبار وفائدة الاغتراب ما جعل منفاهم مورد نفع لهم ولمواطنيهم في مستقبل الايام

وحبذا لو وقف المستبدون فيما مضى عند هذا الحد وغادرونا نتمتع بقراءة الكتب التي ألفت قبل استئثارهم بالامر . فانهم بعد ان سدوا السبل في وجه الجديد المفيد واوصدوا الابواب في وجه الكثير من مؤلفات الاجانب اخذوا يتعقبون آثار كل قديم فيه نفحة

من نفحات الحرية ولقد طالما كان الوشاة يتخذونها وسيلة لنيل ما لم يستطيعوا اليه سبيلاً بطرق البذل والاسترحام كما فعل ذلك البائس الذي نفدت حيله فعجز عن الحصول على وظيفة فارسل تلغرافاً الى المابين ينبئ ان لديه اموراً ذات شأن يبلغهم اياها ففتحت له الابواب فدخل ومعه بعض اجزاء منتخبات الجوائب فاشار الى بعض مظان فيها فكوفئ وعين قائمقاماً وصدرت الاوامر في الحال بمصادرة جميع اجزاء تلك المنتخبات فهجم الرقباء على المكاتب هجوم الشرطة على اللصوص فبعثروا كتبهم وجمعوا كل ما لديهم من ذلك الكتاب

وكم من مؤلف قرئ دهراً بلا حرج ثم صودر وحظر النظر اليه لكلمةٍ او عبارةٍ وردت فيه . وكم من مكتبة زُجّ صاحبها في ظلمات السجن لشبهة تلوث بها لبيع كتاب او لذكر اسم ذلك الكتاب في حديث او رسالة وجهت اليه من صديق وهذه سجون الاستانة ودمشق الشام وغيرهما لا تزال تتفطر لهفاً على أولئك الابرياء

وما عسى ان نقول عن حالة المكاتب الخاصة اذ كانت المنازل تفاجأ على غرة من أصحابها وتفتح خزائن الكتب وان كان بعضها مدخراً من عهد الآباء والاجداد ويتذرع الوشاة ولو بصفحة من كتاب مؤلف منذ قرون لاخذ صاحبه غيلةً . وان حملةً واحدة حملها الوشاة منذ سنتين على بعض وجهاء القوم فى طرابلس وبيروت وصيدا أسفرت عن سجن جماعة من خيرة العلماء وطلبة العلم واحراق

الالوف من الكتب النفيسة حتى ساد الرعب بين طلاب الكتب فكانوا يتلفون بأيديهم تلك النفائس التي جمعت بشق الانفس حتى قدّ رما أتلف بأيدي أصحابه بيوم واحد بما يقرب من خمسين ألف مجلد وكانت النيران تلتهم الكتب التهامها يوم دخلت جنود هلاكو بغداد

ومع هذا فان للمطبوعات قانوناً حبذا لو عمل ببعضهِ حتى لقد كان للكتّاب مكافآت مرتبة على ثلاث درجات قبل هذه الفترة . واننا لانزال نذكر المكافآت التي نالها المؤلفون في تلك الأيام خلا ما كان يجود به كرام السلاطين على الكتّاب والمؤلفين

وأما الشعر وهو نشوة الرؤوس وصناجة النفوس فقد قضي عليه القضاء المبرم الا ما كان ينفخ منه في نفير التدجيل وبوق التبجيل حتى لقد خُيّل لجهلة القوم ان تلك الجذوة التي بدأ شبوبها في زمن السلطان عبد المجيد ثم التهبت أيام السلطان عبد العزيز قد انطفأ نارها وخبأ إوارها وما علموا انها لبثت وميضاً تحت رماد منتشر على هشيم اذا لعبت به نسمة حرية انكشف الرماد فثارت النيران ثوران البركان

ومن أراد ان يعلم ما كان من آثار الحرية السالفة فليرجع الى الروايات التي كانت تمثل بالفرنسية والتركية في دور التمثيل بالاستانة وقد ضربت فيها للسلطان عبد العزيز قببٌ خاصة . بل فليرجع الى حماسيات كمال زعيم النهضة الشعرية . واذا أردت مثالاً انصع

فاقرأ متناً وشرحاً شعراً ونثراً ظفرنامه يوسف ضيا باشا وقد انتقد فيها باشد من قذف النبال سياسة الدولة فى بعض الشؤون . ووصف بعض صدورها ووزرائها تحت ذقونهم بما لو نُطق بحرف من مثله فى الحكومة الغابرة لزج به الى اعماق البوسفور

ذلك نزر من بحر من مساوئ حكم مضى واني أختم هذا الباب بكلمة لرجل من جهابذة رجال العلم وفحول الشعراء فى سوريا اذ قلت له يوماً : ما لكم معشر الكتاب هاهنا قد اقعدكم الخمول ونحن فئة صغيرة منكم رحلنا عنكم الى مصر وكلنا من تلامذتكم فكان منها الكاتب المجيد والمؤلف والشاعر المفيد الضارب في رياض الحقيقة ومسارح الخيال.وأما انتم فلا تنفحوننا الاَّ بكل تافه قليل الجدوى . فقال ابعث لنا بنفحة واحدة من نسمات حريتكم وناقشنا بعد ذلك الحساب . فافحمني وقلت حسبنا الله ربّ عجّل بفرج من عندك

والآن قل لامثال هذا الجهبذ النحرير في كل اطراف البلاد قد استجيب دعاؤكم وفكت القيود فأرونا نفثات يراعكم وابرزوا لنا مكنونات صدوركم ووافونا بكل جديد مفيد وسطروا لنا علوم العصر وترفّوا عن أنفسكم وأفيدوا أبناء جنسكم واطلقوا عنان الاقلام . ولكن الامل وطيد ان نشوة السرور لاتأخذكم فتتخطوا جادة اليقظة والاعتدال لئلا يختلط النفع بالضر والخير بالشر

حرية الكتابة

او

البوستة والتلغراف

ان الخلاف الذي قام هذه الايام بين الحكومة العثمانية وايطاليا قد كشف عن حقيقة فى غاية الغرابة . طلبت الحكومة الايطالية ان يؤذن لها بفتح مكتب بريد فى القدس اسوة لها بسائر الدول الاوروبية الكبرى ولما لم يجب طلبها أرعدت وأبرقت وحشدت الاساطيل فلم تجد الدولة وان شئت فقل رجال المابين سبيلاً الى الرفض فسلموا بمطالب ايطاليا وخصوصاً بعد ان اتضح لهم انحياز جميع الدول الى جانب الايطاليان حتى صديقتنا دولة الالمان . وليس هنا موضع البحث في مبلغ العدل من هذا الطلب ولكن المرام بيان مبلغ الظلم ووقوعه في نفوس العثمانيين بصرف النظر عن حق مكتسب لاجنبي او مطمع يسعى الى بلوغ غايته منه

كانت ايطاليا تلح في الطلب والدولة تعتذر عن الاجابة ولم يكن احد من ذوي المصالح في البلاد العثمانية حتى المخلصين المتفانين في حبها القاطرة قلوبهم دماً على كل ذرة حق تسلب منها لم يكن

منهم حتى ولا واحد يدعو لدولته بالفوز خوفاً من ان تتذرع بذلك الى الغاء مكاتب البريد الاجنبية . أفليس ذلك من غرائب الوطنية وان عُدَّ في غير زمن الاستبداد خيانة فادحة

كان العثمانيون جميعاً يعلمون ان مكاتب البُرُد الاجنبية منتشرة في ثغور البلاد من الاستانة على البوسفور الى الدردنيل في مرمرا الى ثغور البحر المتوسط كازمير وسلانيك حتى بيروت ويافا الى البحر الاحمر فخليج فارس حتى البصرة وبعضها في قلب البلاد البعيدة عن الثغور كبغداد والقدس وان بعض هذه البرد يخترق الصحراء من بغداد الى الشام . يعلمون كل ذلك وينظرون مراراً الى ثائر الخلاف بين دولتهم والدول الاخرى بشأن رقابة تلك المكاتب وهم يدعون للدول الاجنبية بالفوز من صميم افئدتهم مع علمهم انها حقوق يُسلبونها ولِمَ ذلك ؟ لانهم كانوا يعلمون انه بزوال تلك المكاتب من بلادهم تزول آخر بقية من حرية المكاتبة فيتعطل ما لم يتعطل بعد من مصالحهم

ولا يسعنا هنا الاَّ الاقرار ان لتلك المكاتب فضلاً عظيماً بحفظ علاقة الاحرار بعضهم مع بعض وترويج كثير من الاعمال التجارية والسياسية

ولقد عرفنا كثيرين من رجال الحكومة الذين كانوا يعملون في الظاهر على الغاء تلك المكاتب وهم في الباطن يؤيدون مطالب

الاجانب خوفاً على مراسلاتهم وتفادياً مما ربما ينال علاقاتهم السرية من الضرر

وهكذا فقد كان لهذه البُرُد مؤيّد من المخلص والخائن على حدٍّ سوى . اما المخلص فلما تقدم من الاسباب . واما الخائن فلانها كانت الوسيلة الوحيدة لايداع مصارف اوروبا واميركا الملايين الصفر المقطرة من دماء الاهالي

ولقد كان رجال المابين مع تأييدهم الاجانب سرًّا بما خصّ مكاتب البريد يدأبون سرًّا أيضاً على استمالة بعض عمال تلك المكاتب واغرائهم بالمال ليدفعوا اليهم بعض رسائل الاحرار . واننا لا نزال نذكر الصيحة الشديدة التي صاحتها احدى الدول بوجه عمال بريدها سنة ١٨٩٤ ثم طردها أربعة منهم دفعةً واحدةً ثم إصدار أمرها بان لايستخدم مكانهم أحد من العثمانيين وذلك على أثر اكتشافها تواطؤ أولئك العمال مع رجال المابين على دفع رسائل بعض الاحرار اليهم لقاء جعل معلوم عن كل رسالة . وان أردتم مثالاً أجلى فاسألوا أبا الضيا توفيق افندي عما جرى له من مثل ذلك اذ دعي الى المابين في السنة المذكورة وضيق عليه واستنطق من أجل مراسلة علمية وأدبية محضة جرت بينه وبين سيدة فرنسوية من ذوات الاقلام . ولا أزال أذكر عبارة له وقد اشتد به القنوط اذ همس بأذني قائلاً : وددت لو اني مت قبل ان أرى هذا الانحطاط

الذي آل اليه أمر هذه الدولة فالحر مضطرٌ فيها ان يكون قاتلاً أو مقتولاً ولقد اشتدت عليه المراقبة من ذلك الحين حتى انتهى أمره كفؤاد باشا بالاهانة والنفي

ولو كان كل بحث يجلو كل حقيقة لا تضح الآن انه كان لكل رجل من رجال المابين واكثر رجال الدولة حتى الوزرآء عمال من الاجانب ترد اليهم المراسلات وترسل التحاويل بواسطتهم في البرد الاجنبية فتأتي الرسالة مثلاً من بلجكا بالبريد الفرنسي باسم الموسيو ادمون على الظرف الخارجي ومن ضمنهِ ظرف آخر باسم محمد باشا فيستلم الوكيل الكتاب ويسلمه لصاحبهِ يداً بيد . وعلى هذا النمط كانت المخابرة تجري بين مختلسي البلاد وعملائهم وكذلك بين دعاة الحرية في اطراف البلاد والبلاد الاجنبية

ولقد كان امر المراقبة شائعاً بين الناس حتى كان الصديق اذا بعث برسالة سلام وتودد الى صديقه يحسب ان عيناً اثيمة تنظر الى ما كتبه وتحلله وتشرّحه قبل ان يقع تحت نظر صاحبه فيودع كتابه من العبارات ما يدرأ شر الوشاة وشبهات المتعنتين . ولو توالت هذه المراقبة لانتجت فوق مضارها المعروفة لدى كل الناس اختلالاً في انشاء الكتاب واجرت على اقلامهم عبارات الريآء والمداهنة . لان الرسائل التي كان يخشى اصحابها فض ختمها قبل تسليمها الى اصحابها كانت تستهلّ وتختم بالادعية والثناء على رجال المابين وعملهم

وكل من الكاتب والقارئ يخط ويقرأ كذباً وتدليساً

وكانت لهم مهارة مذكورة بفتح التحارير وفض الاختام ولو كانت بالشمع حتى يخيل لك انهم لو استفادوا من البخار والكهرباء وسائر مخترعات العصر ما استفادوه من الاحاطة بجميع وسائل فض الاختام لرقوا بالبلاد درجات . وكانوا بعد فض الرسائل التي يختارونها يحكمون ختمها واذا خلت من شبهة دفعت الى صاحبها واكثرها غير باد عليه اثر التلاعب . ولم تكن تلك المراقبة خلواً من كل فائدة واليك مثالاً على سبيل التفكهة :

بعثَ اليّ صديقٌ من بغداد كتاباً ونسي ان يضيف اللقب الى الاسم على الظرف فلم يكن عليه الا اسم سليمان وفي الاستانة الوف سليمانات ومع ذلك فالكتاب وصلني لوجود الاسم واللقب معاً داخل الكتاب فشكرتها لهم منة عظيمة لما كنت أتوقعه بذاهب الصبر من اخبار صاحبي

ولم يكن ممكناً بوجه من الوجوه ان تحيط المراقبة علماً بكل المراسلات المتداولة في البلاد لان ذلك يستلزم ارصاد الوف العمال وبذل ملايين النقود . ولهذا كانوا يقتصرون على فتح رسائل الذين يوجسون خوفاً من مرور نسمات الحرية على ادمغتهم والذين يودون الغدر بهم على هذا الاسلوب الدنيء . وكم من مرة علمنا ان فلاناً سجن وكبّل بالحديد لورود رسالة اليه تشير الى مؤامرة أو

مكيدة أو الى انخراطه بسلك تركيا الفتاة ولم يكن له سابق علم بتلك الرسالة ولا علاقة مع صاحبها ولا خطر على باله شيء من محتوياتها وانما هو شرك القاه له ابناء الشر بايعاز أو بغير ايعاز فسطروا تلك النميقة على هواهم ثم اتبعوها بتلغراف الى صاحب الشأن ينبئونه ان صاحبهم سيئ النية خبيث الطوية يثبت ذلك ما بينه وبين اعداء الدولة من التضافر على اثارة الفتن فتضبط الرسائل الذاهبة اليه وتفتح ويحكم بثبوت تلك التهمة الفظيعة بمجرد هذه الوشاية . ومن ذا الذي يجسر ان يشفع بمن سيق مصفداً بالسلاسل من أجل تهمة هذا شأنها

ومن نتائج تلك المراقبة أيضاً تعطيل المصالح في المدن الكبيرة لامتناع الحكومة عن السماح بانشاء مكاتب البرد الداخلية وكم من مرّة ضجت الاستانة لهذا التضييق حتى كان المضطر الى ارسال كتاب من محلة الى أخرى يعمد الى استئجار السعاة بل ربما كنت اذا أردت ان ترسل كتاباً من بك اوغلي الى استانبول تجشمت من الصعوبة فوق ما تتجشم بارساله الى باريز وصرفت من الاجرة عشرة أضعاف . فلما بلغت تشكيات الاهالي عنان السماء اقيمت مكاتب البريد الداخلي في الاستانة خاصة وما لبثت أياماً حتى صدر الامر بالغائها خشية ان تسهل على دعاة الاصلاح حرية التخاطب ثم أعيدت بالحاح من الاجانب وبعض ذوي النفوذ على ان

لا تقبل الا التذاكر المفتوحة

فمن يعجب بعد هذا لتدنّي دخل هذه الادارة المختلة وذهاب معظمه الى المكاتب الاجنبية فكأن حكومة المابين آلت على نفسها ان تعبث بكل مورد من موارد البلاد بالحجر على الحرية على طرق شتى . وليس من الصعب تصور ما سيكون من ازدياد موارد الثروة باستتباب الأمن والعدل

ليست ادارة البريد من موارد الثروة العظيمة ومع هذا نخذ مثلاً ضعيفاً علاقة البريد العثماني بالبريد المصري فان مصر على كونها محسوبة من أجزاء الممالك العثمانية كانت في نظرها غولاً رواعاً يُمنع مأمورو الدولة من المرور به بل ربما تحاشوا ذكر اسمه . والرقابة على بريده بلغت أعظم المبالغ ولهذا كان يضطر أرباب المصالح في الاساكل الى جعل كل مخاطباتهم بواسطة البرد الاجنبية وأما في المدن الداخلية كمصر القاهرة حيث لا مكتب لبريد أجنبي فان الرسائل تذهب منها رأساً الى البلاد العثمانية بعد مرورها على الاسكندرية أو بور سعيد . ولهذا كان أصحاب المصالح يتكبدون مشقتين ويصرفون الاجرة ضعفين اذ يبعثون برسائلهم بالبريد المصري الى إحدى الاساكل ومن ثم تفض ظروفها وتوضع عليها الطوابع الاجنبية . ولم يكد الدستور يعلن حتى بدا الفرق وظهر الغبن الفاحش فاني أعرف محلاً واحداً حصل له من الوفر بعد إعلان

الدستور زهاء ثلاث ليرات في الشهر . أما الذي يربحه البريد العثماني بهذا الاصلاح فليس مما يستهان

وان ما قيل في ادارة البريد يصدق معظمه على ادارة التلغراف وان كانت مكاتب تلغرافات الاجانب غير متشعبة في البلاد العثمانية كمكاتب برُدهم . ولكنه حسبنا ان يكون في قلب العاصمة مكتب تلغراف أجنبي وان يكون للاجانب مكتب آخر في الفاو الواقعة في منتهى املاك الدولة على خليج فارس . ولا بد ان نذكر استطراداً وان لم نبلغ بعد محل البحث في اختلال ادارة البلاد ان الخسائر متطرقة الى الدولة من كل ابواب مواردها ومن جملتها خسارة اجرة الرسائل التلغرافية المتبادلة بين اوربا والهند فممر طريقها الطبيعي على بغداد وفيه لاصحاب تلك الرسائل ونفس الحكومة الانكليزية وفر عظيم. ومع هذا فقد ادى اختلال الادارة الى تحويل هذا المورد الى طريق السويس



حرّية الجمعيات

في اخريات سني السلطان عبدالعزيز ايام القيت مقاليد الاحكام الى امثال مدحت وشب في الاستانه من خلفاء شناسي امثال كمال واكرم وناجي وسعيد ومدحت هبت في البلاد نسمة نشاط فدفعتها الى نهضة فكرية تحفزت على اثرها فكادت تثب الى اوج معارج الفلاح لو لم يقم في وجهها جبار الاستبداد . وامتدت نفحات تلك النسمة الفيحاء الى المدن وكادت تبلغ القرى والبوادي لو فسح الله في اجلها . فنهض شبان البلاد على اختلاف نزعاتهم الى انشاء المنتديات وتأليف الجمعيات العلمية والادبية طلباً للافادة والاستفادة وكان الجم الغفير من رجال الدولة ينشطون اولئك الشبان ويشدون ازرهم بالقول والفعل

لا ازال اذكر ذلك اليوم الميمون اذ حدا بنا هـذا الحادي فالفنا جمعية زهرة الآداب في بيروت وتآلفنا عصابة لم يكن فيها اثر لفارق بين مسلم ومسيحي وسننّا قانوناً فجعلنا اول مواده منع التعرض للبحث في الدين والسياسة وفرضنا على جميع الاخوان القاء الخطب والمباحث المفيدة وجمعنا مكتبة على قدر ما تيسر لنا فودّع الاخوان القهوات وما لحق بها من محلات اللهو في الفراغ. ثم ما لبث ان

عيّن اسعد مخلص باشا والياً لسوريا بعدان تولى الصدارة العظمى وكان ساعدنا قد اشتد وربائط الاخاء قد أحكمت فذهب منا اليه وفد يحمل قانون الجمعية فتلقاه بالبشر فخاطبناه بحرية لم يكن يجسر أحد على مثلها بعد تلك الايام الا حين تولى سوريا مدحت باشا وقلنا انـا لسنا بحاجة الى درع يقينا في أيام فخامتكم ولـكن من لنا بضمين لخلفائـكم وعليه فاننا نلتمس التصديق على قانوننا بفرمان شاهاني أو امر عال. فما كان أشد سروره عند سماع هذا الـكلام ولم يمض على تلك المقابلة اسبوعٌ حتى صدرت الارادة السنية وهي لا تزال محفوظة لدينا لمن شاء الاطلاع عليها وان كانت الجمعية قد تبددت وتلاشت

قص هذه القصة على أبناء زمن الاستبداد فيقولون أفي يقظة أنت أم في منام ومن ذا الذي يصدق باباحة الاجتماع حينئذ لشرذمة من الفتيان يخطبون في السر والعلانية أليس ذلك من الاسباب الداعية الى تقويض أركان الملك ؟ تلك إحدى الاماني التي بلغتها الأمة العثمانية منذ خمسة وثلاثين عاماً فما ترى كان يرجى ان يكون مبلغها الآن لو ظلت مطلقة في ذلك السبيل

تسلط الوهم على عقول رجال الاستبداد بل أرادوا ان يسلطوه على العقول فقضوا على الجمعيات كما بددوا الجماعات وحرَّموا كل ما يشف عن تضافر وتعاون أي كل ما ينتج خيراً للبلاد . تأخذهم

الرعدة لقلبين متآلفين فما بالك اذا تعددت القلوب . يسيئون الظن حتى باجتماع أعضاء أسرة كبيرة في بيت واحد . يخافون والخائن خائف أن تُوجه قوة تلك الجموع عليهم وان قصرت بحثها على حروف الهجاء . اجهلوا ان المؤامرات السياسية اذا قصد بها دفع الظلم يُسبل عليها ذيل السر والتكتم وما أغناهم كل ذلك التنكيل بالجمعيات العلنية عن غل أيدي الجمعيات السرية التي ما زالت دائبة على عملها ليل نهار حتى ظفرت بغلّ أيديهم . ولم يكونوا يقتصرون على فض المجتمعات الرامية الى تثقيف العقل وترويض الفكر بل تجاوزوها خطأ أو عمداً الى بعض ما يقصد به إسعاف الفقير وتعليم اليتيم

ولسنا هنا بمنكرين انهم أجازوا تأليف الجمعيات الخيرية المحضة حيث لا بحث ولا خطاب . ولكنهم سواء اختلط عليهم الامر او لم يختلط لم يكونوا يأذنون بارتفاع صوت في تلك المجتمعات. فكان لذلك نتيجتان مشؤومتان : أولاهما انهم بذلك الضغط جروا بالعقول في وجهة التقهقر والثانية انه لم يبق في البلاد الا الجمعيات الطائفية الخيرية وان هذه الجمعيات مع ما فيها من النفع ليس من شأنها ان تسعى في التأليف بين أبناء البلاد وهو الطامة الكبرى في نظر الحكومة الغابرة

وكم خلطوا بين النافع والضار حتى في عرفهم . وهذه جمعية

المقاصد الخيرية ألفها وجهاء المسلمين في بيروت لاسعاف الفقراء وتربية الايتام وانشاء المدارس وما أشبه من المقاصد النبيلة . فقال الوشاة تلك جمعية ينم اسمها عن مرمى خفي ولا حاجة بالجمعيات الخيرية ان يكون لها مقاصد فلا بد من ان تكون تلك المقاصد لامر آخر فاقضوا عليها قبل ان تقضي عليكم . تلك كانت فلسفتهم بتعبير الاحلام . وكم كان لهم من مثل هذه الاعمال التافهة في عاصمة السلطنة وسائر المدن

ولست هنا بمتكلم عن الجمعيات التي كانت على وشك القيام للتأليف بين المسلمين والمسيحيين . فانه قضي عليها وهي في مهدها لانها تأخرت في النشؤ فتقدمت في الاضمحلال

ولست بباحثٍ أيضاً في الجمعيات العلمية المحضة من أمثال المجمع العلمي الذي أنشىء في بيروت منذ خمسين عاماً وكان مؤلفاً من نخبة علماء المسلمين والمسيحيين من وطنيين وأجانب فان جرثومة هذه النهضة لم تكن قد اختمرت الاختمار الكافي لتمكنها من الاستقرار على أسٍّ مكين

ولست بناظر أيضاً الى الخطابة في بلاد يكاد يكون الهمس بالاذان فيها محظوراً منذ بدت طوالع الاستعداد لها الا ما كان يقال في حفلات المدارس وأكثره في المدارس الاجنبية والكثير منه مشوب بمزيج الحقيقة والرياء . ولكنه لا بد من التنبيه الى انه

وان لم يكن للجمعيات ولا للخطابة شأن مذكور في البلاد في زمن من الازمان فان النفوس قد تشربت مبادىء الاجتماع وعرفت منافع الجمعيات الرامية الى أغراض حميدة . وليس بالكثير على العثمانيين بعد الآن ان يتخذوها من وسائل الاصلاح — ولا حرج عليهم — فيقيموا المنتديات العلمية والتهذيبية ويجاروا العالم في سيره الحثيث ويشيدوا معاهد العلم ويتعهدوا الكثير من مجاهل بلادهم التي يسعى الافرنج من البلاد القاصية للبحث في آثارها وتدوين سابق تاريخها المجيد فتكون منهم اللجان المقيمة والبعثات الضاربة في قلب البلاد وأطرافها للبحث والدرس فان مجال التنقيب والاكتشاف في البلاد العثمانية أوسع منه في كل بلاد . في السهول والجبال والحواضر والبوادي وفوق وجه الارض وفي قلبها . ثم ان القيام الى الاصلاح الادبي والتأليف الثابت بين عناصر الامة لا يتأتى الا بواسطة هذه الجمعيات العلنية . فان فعلها في العلم والعقل والفكر فعل الشركات المالية في التجارة والصناعة والزراعة

وعلى الجملة يقال ان الحاجة في البلاد العثمانية الى هذا التكاتف أشد منها في سائر البلاد وخصوصاً اذ تخطينا زمن القول الى زمن العمل وهيهات ان يسد الافراد في الاعمال العامة مسد الجماعات

الحرية ورجال الدولة

خرجت باكراً صباح يوم من أيام سنة ١٨٩٤ للنزهة في مرسيليا فالتقيت بصديق فرنسي معه رفيق عليه لوائح الكآبة فاستوقفني صديقي ودعاني لتناول القهوة في احدى قهوات الكانبير فجلسنا هنيهة ورفيقه صامتٌ مطرق حتى اذا شرب قهوته سار في سبيله . فقال صديقي اراك محدقاً بصاحبنا كانك تستطلع طلع امره وسبب انقباض صدره — قلت نعم — قال هذا مأمور في احدى دوائر الحكومة وهو كاثوليكي ورع في تعبده . ربُّ بيت يعول امرأة وأولاداً . ليس بذي ثروة ولا مورد رزق له غير راتبه . وقد اِلف الذهاب الى الكنيسة صباح كل يوم وان الله قد ابتلاه برئيس ابغض ما عليه العبادة والمتعبدون . فاصبح مضطرًّا الى تأدية فرضه فجر يومه فيذهب ويرجع خلسة لئلا يعلم به رئيسه وأقل ما يناله من ضرره سد سبيل الترقي في وجهه . قلت أيكون هذا عندكم وانتم في بلاد تفاخر الدنيا بحريتها — قال وجب ان لا يكون ولكنه كان ولو قليلاً

اذا كان هذا مبلغ محاذرة المأمور في بلاد الحرية فما عسى ان يكون في بلاد الاستبداد ؟

يقول اعداء البلاد انها خالية من الرجال الصالحين لتولي الاحكام . ويقول محبوها القانطون عن غير روية لقد تدنَّست الاخلاق وساد الفساد وهيهات ان يستقيم المعوج . فقل للاولين والآخرين كل ذلك لم يكن ولا كان بعضه . ولكن لكلا الزعمين أسباباً زالت يوم اعلان الدستور وقد حان لنا ان نقول اليوم قول اللرد سولسبري ان في البلاد العثمانية رجالاً وهم لو أطلقوا رجال عظام

لاريب ان استبداد الحكومة الغابرة ازاح من وجهها صفوة خالصة من رجال الذكاء والغيرة والاستعداد واذا اضطرت الى استخدام بعضهم ذرًّا للرماد في أعين الناس طرحتهم في احدى زوايا الاهمال لا حول لهم ولا قوة كما طرحت اكرم وسعيداً في زوايا مجلس الشورى حتى تسنى لها ابعاد سعيد الى اليمن . فهؤلاء وامثالهم اسبل ذيل التعسف ستراً على ما كان يرجى من نفعهم . اما الآن وقد فتحت لهم الابواب فسيكون لهم في المستقبل شأن مذكور ومآثر غراء . وهناك فئة اخرى آثرت الاغتراب والفقر وواصلت الجهاد كرضا وصباح الدين وعبيد الله فبذلت لها الاموال فلم تطمعها وغرّرت باعلى الرتب واسمى الوظائف فلم تغتر ولم تزل دائبة في سبيلها حتى قيض الله لها هذا الفوز المبين . ومن هذه الفئة الاخيرة زمرة من خيرة النجباء أخذها العياء فوقفت في

منتصف الطريق وبلغ منها الجزع مبلغ اليأس وخُدعت بالاماني والوعود فسقطت في الاحبولة وعادت الى الاستانة فحيل بينها وبين امانيها وغلت أيديها بحبل من مسد كلطف الله ومراد . ولسوف تحكم بين جميع هذه الفئات رُبط التآخي والتعاضد فيكونون عصبة مجتمعة بعد ان كانوا عصابات متفرقة اقيمت بينها الحواجز والسدود .

هؤلاء جميعاً لم يكونوا من رجال الدولة على ما يفهمه أرباب السياسة فلنغادرهم وشأنهم الى حين ونقصر البحث على أولئك الذين تولوا الاحكام واسندت اليهم المناصب للعهد المنصرم

ترى الجم الغفير من الناس ينحون بالأئمة على جميع رجال الحكومة بلا استثناء وهو خطأ فاحش . فاذا استقريت الاحوال وتتبعت مجاري السياسة الداخلية تبين لك ان التبعة كل التبعة في هذا البلاء لا تتجاوز النزر اليسير منهم

انظر اولاً الى الجيوش التي كانت ملتفة حولهم من جند الجواسيس ولا تظنن انها كانت أخف وطأة عليهم منها على سائر الناس بل اذا امعنت النظر رأيت الحقيقة بخلاف الظاهر . وكلما صعد الواحد منهم في سلم الارتقاء زادت الرقابة عليه ولا يستثنى من ذلك صدرٌ أعظم ووزيرٌ خطير ولا تُرعى حرمة شيخ اسلام وعالم كبير . بل كان صغار المأمورين احف ضيماً وانعم بالاً اذ كان

يتاح لهم ان يزوروا ويزاروا ويختلفوا الى المجالس . واما اولئك فكانوا سجينين في بيوتهم توجس منهم الخيفة اذا تجاوزوا الابواب وعليهم العيون مبثوثة في المنازل والطرق لا يعلمون اهم واقفون لهم في الطريق ام قاعدون بين جلسائهم وندمائهم في بيوتهم ام جاثمون بين خدمهم في غرف نومهم ومطابخهم . لا يجسر الوزير ان يزور وزيراً ولو كان حبيباً له قبل الوزارة . يمعن الفكرة طويلاً قبل ان يفوه بكلمة خوف ان تؤوَّل او تنقل . تأخذه الهواجس فلا يعلم مصيره مساء يومه . لا يعلم أيخرج عن منصة الاحكام الى بيته فيلفي الجواسيس قد برزت من خفائها تحمل أوامر تفتيش غرف المكاتب والملابس والمطابخ والشرفات او الجنود قد حملت امر سوقه الى المابين ليستنطق ويهان او صدرت الارادة السنية بايقافه الى أجل غير مسمى . ولهذا كنت ترى معظم هؤلاء الامراء الارقاء على تحفز واستعداد حتى اذا خشوا الغدر بهم تناولوا حقيبتهم المعدة لمثل هذا اليوم وطلبوا ملجأ يتقون به شرّ السعايات . ولا يزال خبر التجاء سعيد باشا الصدر السابق الى السفارة الانكليزية يرن في الآذان

ثم اذا الفت الى زعماء الخفية انفسهم رأيتهم تحت رقابة خفية أخرى يقال في وصفها مثل ما تقدم وعلى هذه رقابة أخرى وهكذا الى مالا نهاية له حتى تتصل من اكبر كبير الى اصغر صغير متسلسلة

من ولي عهد السلطنة الى ابناء الاسرة المالكة الى الوزراء والعلماء الى المشيرين والضباط الى الولاة والمتصرفين حتى مرتبي الحروف في المطابع وموزعي رسائل البريد والتلغراف

ذلك كان نظام الخفية . ذلك الوباء المنتشر في البلاد انتشار الجراد . حشرات آخذ بعضها باذناب بعض ولكم التفت تلك الاذناب على الرقاب فخنقت نفسها . وكم من جاسوس كبير قضي عليه بوشاية جاسوس صغير . ولو كان العدل بالمساواة في شكل واحد من اشكال الحكم لكانت الحكومة الغابرة اعدل الحكومات اذا لم تكن الخفية تضرب كشحاً عن أحد ظالماً كان او مظلوماً

فاذا علمت ذلك وعرفت ان كل الحول والطول اصبح في يد دعاة الاستبداد وان الباب العالي بات أثراً تاريخياً يشير الى انه كان مصدر الاحكام في سالف الزمان . وان الوزراء جميعاً أصبحوا آلة صماء في ايدي رجال المابين لا يحلون ولا يربطون ما لم يتلقوا الاوامر واذ أحرجهم العسف فهزتهم الاريحية فقاموا بوجه تلك الاوامر نبذوا في الحال كما جرى مراراً لسعيد وكامل الصدرين . واذا علمت أيضاً ان سلطتهم ازيلت حتى عن نفس مستشاريهم وكتابهم فقل لي بحقك من ذا الذي يعجب لتثبط هممهم وتعذر الاصلاح عليهم

فكل تبعة هذا الجمود وتلك المظالم انما يجب ان تلقى على

عواتق اولئك المقربين الذين قبضوا على ازمة الاحكام وتصرفوا بحقوق العباد تصرف المالك بملكه

وما عسى ان نقول في انتخاب المأمورين وتعيين ذوي اللياقة منهم وليس لصدر محنك أو وزير مدرَّب أو والٍ أمين ان يأمن على بقاء مستشاره في خدمته من الصباح الى المساء. وبينا ترى المأمور الذي قضى حياته في منصبه يجهد نفسه في الخدمة اذا به قد أقيل من منصبه لانه راق صنيعة فلان أو فلان ان يحل محله فيه. بل ربما أرغم رئيس مجلس أو دائرة كبيرة على ان يحل بين الاعضاء عضواً جديداً لا محل له ولا مزية تحليه الا انه من صنائع المقربين. يؤمر بقبوله أمراً ولا يستشار ودونك رؤساء شورى وامانة العاصمة ومجلس تفتيش المعارف فاسألهم ينبؤوك بغرائب الحال

ثم اذا انثنينا الى الاصلاح المفروض على رجال الدولة قياماً بواجب تلك المهام يجب ان نعلم قبل كل شيء ان كلمة « الاصلاح » نفسها كانت من الحروف المقضي عليها بالالغاء. اذا نطق بها ناطق أتهم في انه من دعاة الثورة ومن ذا الذي كان يجسَر ان يقول جهراً ان البلاد في حاجة الى الاصلاح. أو من ذا الذي كان يجسَر ان يقرن اسمه الى عمل مفيد في البلاد حتى ولو كان من رجال المابين الا في أحوال شاذَّة

واذا أردت ان تعلم مبلغ العذر الذي نلتمسه لبعض رجال

الدولة على تقاعدهم في زمن العسف عن طلب النافع المفيد والسير في طريق الاصلاح فاننا نضرب لك مثلاً رجلاً تفاخر به رجال الامم وقد تدرَّج في مرقاة المناصب حتى تولى الصدارة العظمى الا وهو مدحت باشا

رأينا مدحت والياً قبل طرد الحرية من البلاد ورأيناه والياً بعد ذلك . فانظر الآن الى شأنه في الولايتين . تولى بغداد قبل عهد الاستبداد سنة ١٢٨٥ (١٨٧٠) وكانت الادارة مختلة والقبائل ثائرة والمالية ناضبة وليس في البلاد شيء من معاهد العلم والصناعة فوجه نظره الى توطيد دعائم الامن فسار بنفسه للضرب على ايدي رؤساء العشائر الهندية والدغارة فاخذ من اخذ بالقوة وسكن روع من بقي باللين والمجاملة وسير البعوث الى قبائل المنتفق والاحساء والقطيف فدوخ العصاة وأمن الطائعين . ولما استقر له الأمر وساد الامن انثنى الى الشؤون الداخلية فاصلح ادارة الحكومة ونظم المحاكم واوجب ان لا يكون أحد من عمال الحكومة من صنائع الوجهاء . وشاع خبر نزاهته وتجرده فهابه المرتشون واقفلت الابواب في وجوههم . واتخذ ما امكن من الوسائل لدفع الرواتب في أوقاتها ورغب في زيادة رواتب صغار المأمورين فلم يتسنَّ له ذلك . وله كلمة مأثورة قالها اذ ذاك : « سوف ياتي زمن يتيسر للدولة فيه ان تعادل بين العمل والاجرة اما الآن والاجحاف

ظاهر فكأننا نحن انفسنا نأذن بالرشوة لذوي الرواتب الزهيدة بل نأمرهم بذلك أمراً » وضرب على أيدي الحكام الظالمين وفتح ابوابه للمتظلمين فهابه الحاكم واطمأن المحكوم . ونظر في الطرق المتخذة لجباية الاموال فعرف الداء وعاجله بالدواء فامن الفلاح ظلم ملتزم الاعشار واطمأنت عشائر البدو من الزراع فعادت الى زراعتها

وان له فوق ذلك من الآثار في تلك الولاية القاصية في أطراف البلاد ما جعل بغداد تفاخر سائر الولايات حتى ما جاور منها عاصمة الملك فهو الذي أنشأ أول مطبعة في بغداد وأصدر فيها جريدة دعاها الزوراء وهو الذي أصلح ادارة عمان البحرية التي أخذت تسير البواخر بين بغداد والبصرة ومنها الى اليمن والحجاز وهو الذي انشأ معمل الحديد الكبير والحقه بتلك الادارة . وهو أيضاً الذي انشأ مكتب الصنائع وبث في البلاد روح التضافر على تأليف الشركات فألف شركة من أهالي بغداد فأنشأت طريق الترامواي بين بغداد والكاظم وهي أول شركة ترامواي في الولايات العثمانية على ما نعلم . وكانت له عناية خاصة باصلاح الطرق وتسهيل سبل الاتصال وهو الذي قرب المسافة بين بغداد والبصرة بضع ساعات اذ خرق سبيلاً لدجلة تحوله عن مجراه في محل يلتف فيه المجرى ويدور مسافة طويلة ثم يرجع الى قرب

المجرى الاول . ولا يزال ذلك المحل يعرف « بالقصة » او « قصة مدحت » وله من هذا القبيل أعمال باهرة اذ استقدم مهرة المهندسين وبثهم في الولاية فدرسوا حالة البلاد الزراعية ووضعوا مشروعات الري الخطيرة ولكن مدته لم تطل فغادر بغداد ولم ينفذ منها الا القليل فاضحت بعده أثراً بعد عين

وشرع في توسيع طرق بغداد وعند قدوم شاه العجم الى بغداد اعد له قصراً فخيماً أنشأ ازاءهُ حديقة غناء . فلما غادر الشاه بغداد جعل تلك الحديقة متنزهاً عاماً دعاه « ملت باغچه‌سي » أو بستان الامة وكان يختلف اليه كأحد الناس يجامل الاهالي ويحادثهم كأنه واحد منهم

واطلق من الحرية لمأموريه بقدر ما القى عليهم من التبعة واوجب عليهم عدم المحاذرة من شيء اذا كانوا على ثقة من عملهم حتى لقد كان يوبخ المأمور الذي يأنس منه تزلفاً اليه بقول أو بفعل وكان لا يدخر وسعاً في القاء بذور الحرية ليألف الناس العمل بها والنطق بها مهما كانت الحال اذا كانوا في جانب الحق

دخل يوماً قاعة مجلس الادارة والاعضاء مجتمعون فقال ارى الحاجة ماسة بنا الى استئذان الباب العالي في زيادة الضرائب فما رأيكم . قالوا جميعاً هذا هو الرأي وتلك هي الحكمة . قال فلنكتب اذاً محضراً ونرسله في الحال فكتبه الكاتب وبعد ان مهروه باختامهم

قدّم اليه فمهره وقال بارك الله فيكم وغادر المجلس . ثم رجع اليهم ثاني يوم وقال فكرت في امر زيادة الضرائب فتراءى لي انها ظلم لا يجوز ان تثقّل ذممنا به . ولكن سبق السيف العزل فقد بعثت بمضبطة امس الى الباب العالي فرأيي اذا رأيتموه صواباً ان نلحقها باخرى نوضح فيها اننا تسرعنا بارسالها ونأتي على الاسباب الموجبة لنقضها فما قولكم . قالوا جميعاً هذا هو الرأي وتلك هي الحكمة فامر الكاتب فكتبها وبعد ان وقعوا عليها دفعها اليه . فاخرج المحضر الاول من جيبه وامسك هذا بيد وذاك بيد وقال هذا هو الرأي وتلك هي الحكمة وانا صاحبهما امس واليوم وسأظل كذلك غداً وبعد غد فما شأنكم اذاً وهذا المجلس ثم القى عليهم عظة مختصرة اوضح لهم في خلالها معاني الحرية ومراميها واوجب عليهم ان لا يخشوا مخالفته اذا رأوه على غير هدى

وكان يلتهب غيرة على الشروع حالاً في كل عمل يتضح له نفعه والمجال فسيح في تلك الولاية وسائر الولايات . ولكن المال رب الاعمال غير متوفر لديه ومالية الدولة في عجز ظاهر فلا يسعها ان تمده بشيء ومع هذا فبعد ان احتال على ارصاد المال اللازم لما تقدم من الاعمال بحيل شتى لا محل لايرادها بدا له ان يظل سائراً في سبيله وكانت الموارد قد نضبت فكتب الى الباب العالي تقريراً مفصلاً وضع فيه مشروعاً لاصلاح ادارة الجمارك وجباية الاعشار

وقال في آخره ان البلاد ما زالت في حاجة الى كثير من الاصلاح وعدّد من انواعه ما شاء واوضح الفائدة منها للدولة والرعية وقال في الختام لئن أذنتم لي بالشروع في هذه الاصلاحات فاني متعهد ان لا أثقل كاهل الخزينة بعد بغرش واحد بل اجعل جميع النفقات المقبلة من الزيادة التي تحصل في الدخل . فاجابوه شاكرين على الزيادة ولكنهم امروه بارسالها الى الاستانة

وليس هنا محل البحث في ما آل اليه امر جميع تلك الاعمال الخطيرة التي قام بها ذلك المقدام مما باد واضمحل أو رجع القهقرى ولو جرى الولاة خلفاؤه على أثره منذ نحو اربعين عاماً لاصبحت بغداد الآن كما يقول اهلها سيدة البلاد

تلك واشباهها اعمال مدحت باشا بولاية بغداد وكل حكمه فيها نحو ثلاث سنوات ونصف

فانظر الآن معي الى ايام ولايته في سوريا وبعدها في ازمير في عصر الظلم والاستبداد

تولى مدحت سوريا سنة ١٨٧٨ وكان لا يزال هو إياه . مصلح كبير ووزير خبير بل كان زاد حنكةً وعلماً بما ولي من المناصب في تلك الفترة وحسبك منها الصدارة العظمى . أتى سوريا وكله همة وذكاء فهمَّ بأمور كثيرة لم يكد يتسنى له انفاذ شيء يذكر في تاريخ هذه البلاد كما يذكر في تاريخ بغداد . وأما في أزمير فلا

يحفظ له التاريخ الا تلك المكيدة الدهماء التي نصبت له فأخذ بها وقبض عليه وسيق الى الاستانة ثم الى الطائف حيث قضى شهيداً

فلا ريب اذاً ان ما أتاح لمدحت في الولاية الاولى مالم يتحه له في الولايتين التاليتين انما كان اطلاق يده في الاولى وغلها باصفاد الجواسيس والاوامر السرية بعد ذلك

واذا قلت ان مدحت كان رجلاً فرداً فلا يقاس عليه فانظر الى سائر الولاة ترَ بينهم من لا يكاد يقل عنه شأناً . ودونك مثلاً راشد باشا الذي تولى سوريا في نفس تلك الاثناء ثم تقدم على مدحت في الشهادة فكان من جملة المقتولين بيد جركس وهم مجتمعون في بيت مدحت في الاستانة بعد ذلك التاريخ باعوام

تولى راشد باشا سوريا وهي في حالة تماثل حالة بغداديوم تولاها مدحت فمشى مراراً في طليعة الجنود المسيرة لتدويخ عصاة النصيرية في جبالهم والحوارنة في معاقلهم . ولم يشغله ذلك عن النظر في شؤون الولاية الداخلية . فمهد سبل التعليم وفي زمنه أنشئت المدارس الكثيرة وظهرت في سوريا أول المجلات العربية . ونشط أصحاب الاقلام فانشأوا صحف الاخبار ووسع لهم نطاق الحرية في التحرير وكافأ المؤلفين بمال بعضه من عنده وبعضه مما كان يرد من الاستانة بناء على اشارة منه . وكانت في زمنه نهضة للعلم والادب لا يزال كهول السوريين يتغنون بها . فما بال خلفائه ومدحت منهم تعذر

عليهم ان ينهجوا ذلك النهج القويم ؟

فلا يمرنّ بخاطرك بعد ما تقدم ان رجال الدولة فى الحكومة الغابرة لم يكن فيهم من ينزع هذا المنزع فالنفوس باقية على رغائبها ولكن العقبات أرصدت في وجوههم فردتهم على اعقابهم . وما كانوا بمرتدين الا ليعاودوا الكرة بايد مطلقات

وان شئت زيادة ايضاح فدونك أمثلةً غير مأخوذة عن تواتر بل هي منقولة عن مذكرات مشاهدات ومدّخرة لمثل هذا اليوم :

كلنا يعلم ما لمنيف باشا ناظر المعارف الاسبق من جلالة القدر وما له من المكانة بين رجال العلم والايادي البيضاء في خدمة الدولة وكل ذلك لم يغنه عن نكبة نكبها لوشاية واشٍ استخرج من كتاباته كلمات أولها على هوى بعض المقربين فعزل من نظارته وأمر بالاقامة في منزله زمناً الى ان ظهرت براءته ظهور الشمس فأعيد ناظراً للمعارف. وقد كان ساقني الحظ للاتصال به اتصالاً مكيناً فأطلعته يوماً على كراريس من كتاب خطي فقال بعد ان نظر فيها طويلاً هذا كتاب جزيل النفع ولكن واأسفاه لو اتيتني به الى المقام الرسمي في النظارة لما وسعني الا ان اردك خائباً اذ ليس في مجلس التفتيش والمعاينة من يجسر ان يرفع اليّ تقريراً بجواز طبعه واستطرد باسماً والسبب في ذلك انه مفيد ثم استرسل

في الكلام الا ما الفنا سماعه منه من وصف اختلال الاحكام وهو يردد الحسرات متتابعة الواحدة تلو الاخرى

قصدت الاستانة سنة ١٨٨٦ وسعيد باشا اذ ذاك صدر اعظم وكامل باشا الصدر الحالي ناظر الاوقاف وكان لاسرتنا سابق اتصال به منذ كان متصرفاً لبيروت فقصدته ثاني يوم وصولي فرحب بي واشار اليّ بمواصلة التردد عليه مدة اقامتي في الاستانة واستبقاني لتناول الطعام على مائدته حتى اذا جلست للغدآء سألني عن سبب قدومي الاستانة وعما اذا كان لي حاجة تستوجب اسعافه اياي بقضائها قلت نعم منذ سنتين شرع ابن عمي سليم البستاني في نقل دائرة المعارف الى اللغة التركية والف لذلك لجنة من خيرة كتاب التركية برئاسة خلقي افندي رئيس المكتب السلطاني فانجزت منها نحو مجلدين وتوفاه الله قبل ان يباشر الطبع فرأيت انا واخوته ان نتم العمل ونستأذن نظارة المعارف بالطبع . فقال ارني مثالاً مما كتب فابدي لك رأيي فرجعت في الغد ومعي مثال في زهاء مئة صفحة كنت اعددته لنظارة المعارف فاستبقاه عنده ريثما تصفحه ثم قال لي وهو ملمٌّ بالعربية ليست دائرة المعارف بافصح عبارة واحكم لحمة واجزل فائدة من هذا النقل التركي فلا تتباطأ عن طلب الرخصة ولك مني كل الموازرة . وهذا ابني صبحي بك صديقك من اعضاء مجلس التفتيش والمعاينة يعضدك بكل قواه . فقدمت الطلب الى

الناظر الذي اقيم خلفاً لمنيف باشا ايام نكبتهِ سنة ١٨٨٦ وما زلت اتردد ثلاثة اشهر على نظارة المعارف . ولم تغنني معاونة المغفور له صبحي بك بكل قواه ولا انضمام بعض رفاقه اليه كالسلاوي ولا موازرة كبار الكتاب كسعيد بك منفي اليمن وابي الضيا توفيق بك منفي قونيه الحيين خلا من توفي منهم كجودت باشا وصبحي باشا فان الناظر لبث أذناً صماء . ولما نفدت الوسائل قال لي كامل باشا لئن ذهبت الى الصدر الاعظم فانك بلا ريب تظفر باربك. فكتبت عريضة وذهبت اليه فما كان اشد عجبي اذ قال لي حالاً قرأت في الجرائد شيئاً وسرني جداً اقدامكم على هذا العمل الخطير ولو خطر لي انك لقيت هذه المماطلة لاغنيتك من تلقاء نفسي عن هذا العناء فكلنا يطلب المفيد وكلنا في خدمة هذه الامة واحد فاذهب الآن مطمئناً وعد الي بعد ثلاثة أيام . وفي اليوم التالي كانت الرخصة بيدي فعدت اليه في الاجل المضروب الذي ضربه لي ولكن للتشكر وليس للتشكي

غير ان المراقبة التي أخذت تشتد من ذلك الحين وأسباباً أخرى حالت دون القيام بالعمل . ولا شك ان جهابذة كتاب الترك وقد انطلقت أيديهم الآن سيبرزون امثاله على اتقن منوال

تلك كانت غيرة بعض رجال الدولة على المعارف . ولم يكن دون ذلك تفانيهم في نشر لواء الحرية واصلاح كل مختل في الادارة

والقضاء والمالية وكل مواردها

مضت عليَّ ثلاثة اشهر في الاستانة كنت اجتمع اكثر ايامها بسعيد بك منفي اليمن وانا شغف ببلاغة كتابته في اللغة التركية فالتقط من فوائدها ماتسعه الذاكرة ومن مزاياه انه ضليع بالفرنسية والالمانية وواسع الاطلاع بالتاريخ متقد الذهن ذو تجرد غريب وهو مع تحليه بتلك الصفات رئيس دائرة في مجلس شورى الدولة فقلت له يوماً وهو يكثر من الشكوى من اختلال الاحكام . لئن كنت انت وامثالك من ذوي العلم والشهرة والنفوذ تجزعون لهذه الحال فما تقول عامة الناس . قال نحن أولى منهم بالرأفة لاننا نرى ولا جراءة لنا على السعي ومن سعى منا جوزي جزاء الخائنين فالنار تلتهم افئدتنا ولا طاقة لنا على اخمادها . قال ذلك كأنه يتنبأ بما سيناله يوماً من البلاء في خدمة الحرية والاصلاح

وهذا حقي بك ناظر المعارف الحالي وانعم بهذا الناظر الجديد لهذه النظارة الجليلة عين سنة ١٨٩٣ قوميسيراً لمعرض شيكاغو وكنت ذاهباً اليها لتولي ادارة القسم العثماني فيها قال لي يوماً قبل ان نبرح الاستانة بلغني من ثريا باشا وهو يومئذ باشكاتب المابين انك طلبت رخصة باصدار مجلة تركية تصدر في شيكاغو اثناء المعرض وتستجمع وصف معروضاته وجميع نتاج العلم والصناعة والاختراع فيه . قلت نعم ولكنني صرفت النظر لما يلوح لي من

شدة العناء في هذا العمل الشاق في تلك البلاد النائية وكثرة ما يقتضي من النفقات واشد من ذلك عليّ ما اعلمه من تعنت المراقبة فهي وان كانت لا سلطة لها عليّ في امركا فلربما أوردت كلمة على غير قصد مما حذف من معجم الكتابة فالمناقشة بعد رجوعي الى الاستانة . قال انا الضمين لك من هذا القبيل وان شئت فاطلعني هناك على الملازم قبل الطبع . وهذا عمل مفيد للبلاد فلا يجب ان يثبطك شيء عنه وخصوصاً ان فيه سمعة طيبة للعثمانيين في بلاد الاجانب واملي وطيد ان المابين والحكومة يأخذان من اعداد الجريدة ما يسد النفقات . ولم يزل بي حتى اقنعني . قلت اذاً لا بدّ لي من الارادة السنية قال لم تسبق عادة باصدار الارادات السنية لما يطبع خارج البلاد قلت لا بد لي من ذلك ليطمئن قلبي والا فلست بفاعل فبعد ايام بلغني الارادة السنية وهي لا تزال بيدي

وفي تلك الاثناء قصدت أحد النظار العاملين زائراً فقال لي اثناء الحديث أصحيح انك عازم على اصدار مجلة تركية في أمركا قلت نعم قال أتحررها أنت مع كثرة مشاغلك قلت بل لا بدّ لي من الاعتماد على محرر ماهر قال الا تعرف عبيد الله افندي قلت أعرفه بشهرته قال هو من أبلغ كتابنا وله رغبة في مثل ما أنت راغب فيه فاتفق معه ولكن الرجل من دعاة الحرية والاصلاح . والجواسيس من امامه ومن خلفه فلا يتمكن من الذهاب معك ولكنه يتيسر له

اللحاق بك خلسةً . وبعد ذلك جهز لي صديقي أبو الضيا توفيق الحروف التركية وسائر المعدات واعطاني مرتباً بارعاً من عنده يدعى محمد افندي . وبعد وصوله شيكاغو وافاني عبيد الله افندي فحرر المجلة كل مدة المعرض وأودعناها وصف المعرض ومخترعات العصر بالرسوم المتقنة فكانت أول وآخر ما صدر بامركا من المطبوعات التركية . ولكن رجال المابين نبذوها بالقسر عن موازرة حتي بك والسبب في ذلك اني لم أصغ الى نصيحة ناصح قال لي اذا رغبت في الربح فاجعل ثلاثة أرباع صحيفتك إطراءً بالمابين فلم أفعل فعدت بخسارة جسيمة . وبعد عودتنا الى الاستانة طلب مني جواد باشا الصدر الاعظم نسخاً منها فارسلتها له وعنونت واحدة منها عنواناً خاصاً وكتبت في صدرها .

هذه صحيفتي التي سودتها　　بدم الفؤاد وقد شططت مزارا
أعظمت قدر كلمبسٍ فتبعته　　بمشقةٍ فيها شققت بحارا
ولقيت مالا قاه من أهل النهى　　فكفى بذا أهل النهى تذكارا

اما عبيد الله افندي فبقي مدة في امركا وكان يعلم قبل سفري اني ربما أُسأل عنه واوخذ بتهمته فقال لي : لئن ذهبت معك الى الاستانة فاما ان أقتل واما ان اسجن سجناً يشبه القتل فانا باقٍ الآن هنا الى ان يفتح الله ولكني اوثر الموت على اصابتك باذى فاذا وقعت في مثل هذا المأزق فبتلغراف واحد منك اطير اليهم

ليفعلوا بي ما شاؤا. قلت معاذ الله ان القي بك بين مخالب الموت مهما كانت الحال . فلما بلغت لندن وانا راجع من امركا ذهبت الى السفارة العثمانية وكان السفير رستم باشا على آخر رمق من الحياة فما منع ذلك موريل بك المستشار ان يفتح الحديث معي بالسؤال عن عبيد الله وسبب اغفالي امر ارجاعهِ معي وذلك أيضاً كان افتتاح الحديث في سفارة باريس . اما في الاستانة فكأنهم خلطوا بين عبيد الله والمرتب محمد افندي وكان هذا فتى ذكياً مجتهداً اراد ان يتعلم الحفر في الزنك فاستأذنني بالبقاء ثلاثة أشهر كانت فى أثنائها التلغرافات متتابعة بالسؤال عنه . وما كان اشد هزئي وهزء الناس بسخافة عقولهم اذ وصل الاستانة بعد زهاء شهرين وكان اهتمامهم بتتبع خطواته من امركا الى الاستانة اعظم من الاهتمام بقدوم امير عظيم . فما شعر يوم ارست الباخرة فى السركهجي الاَّ وحاجبان من حجاب المابين يسألان عنه فاخرجاه بما معه الى عربة معدة لاستقباله وساقاه الى المابين فلبث ثلاثة أيام تحت الاستنطاق ولم يجدوا بين ثيابه الا رسوم المعرض وهدايا قليلة أتى بها لوالدته العاجزة . وكأَن الله القى الرحمة في قلب بعضهم فاذنوا له بالخروج لمشاهدة والدته واصحبوه برقيب يلازمه فاتاني شاكياً باكياً فبادرت مسرعاً الى أبي الضيا وواصلنا السعي الى ان منَّ الله عليه بالفرج

واليك غريبة أخرى من اذيال هذه المسألة وهي وان لم تكن

من لباب الحديث لا تخلو من فائدة وتفكهة

في تلك الآونة استدعاني ناظر الخارجية فذهبت الى النظارة ولم يكن اتاها فى ذلك اليوم فاستقبلني احد معاونيه وكانت لي به معرفة سابقة فقال ان لدينا رسائل شتى من السفير العثماني فى واشنطون تفيض فى الثناء عليك وما كان لك من اليد فى خدمة الاسم العثماني ولذلك يود دولة الناظر ان يبلغك شكره ويطلب لك ما تشاء من المكافأة المعنوية . قلت حسبي منه فضلاً ان يكون فكر فى ذلك فلست من سلك اصحاب الرتب . وبعد حديث طويل ومجاملة قال ان لنا حاجة لديك قلت مقضية ان شاء الله . قال ان تعلمنا ماذا فعلت بحروف المطبعة التي أخذتها من أبي الضياء قلت استبقيتها فى نيويورك عند وكيل لي على ان يسلمها الى صاحب جريدة من المهاجرين السوريين كان رغب فى مشتراها . قال نسألك اذاً ان تكتب تلغرافاً مفصلاً على نفقتنا تأمر وكيلك به بتسليمها الى قنصل الدولة العلية فى نيويورك اذا كانت لا تزال باقية فى حيازته والثمن يدفع اليك هنا حالما يرد الجواب من القنصل باستلامها . فكتبنا التلغراف وأرسل فى الحضرة فورد الجواب ان صاحب الجريدة لم يستلم الحروف ولذلك استلمها القنصل فنقدوني الثمن . ولكنهم بادروا فى الحال الى اصدار الاوامر بمنع اخراج الحروف المطبعية من البلاد العثمانية ويا لكثافة تلك الغشاوة على

أبصارهم أجهلوا ان مكاتب البريد الاجنبية تحمل ما شاء العثمانيون منها حيث شاؤا وان مسابك الحروف فى اوروبا فى غنى عن حروفنا اذا احرجها الامر ؟

ولنختم هذه الرحلة وان طالت بكلمة عن حقي بك ناظر المعارف الحالي فانه رفع التقارير الضافية الاذيال عمّا شاهد من ترقيات الصناعة والتجارة والزراعة مما يجب تحديه في الممالك العثمانية . فاسألوه عما كانت عليه نتيجة كل ذلك العناء وذلك الجهد أفلم تكن اوراقه لدى عمال المابين اقل قيمة من مهملات الجرائد ؟

وهذا رجب باشا ناظر الحربية الحالي وهو الذي ذكره كامل باشا منذ اعوام طويلة لجلالة السلطان فقال أعلن الدستور والق مقاليد الحكومة الى ذويها واجعل زمام السر عسكرية بيد رجب باشا فيستقيم لك الامر . انسوا منه ميلاً الى الحرية والاصلاح فما وسعهم نبذه نبذاً مطلقاً لحاجتهم اليه وما وسعهم ايضاً ان يكون قريباً منهم فكانوا يلقون به الى اطراف البلاد ليدفع عنهم المحن وهو بعيد عنهم

كان سنة ١٨٧٨ قومندانا عسكرياً في بغداد وصديقه الفريق ثابت باشا الناشئ على مشربه والياً للبصرة وكانا متضافرين على ما تناله ايديهما من ضروب الاصلاح فهالهما ما رأيا من اضمحلال آثار مدحت باشا وساءهما خصوصاً ما رأياه من مآل ادارة عمان

النهرية وعجزها عن القيام بنفقاتها مع كثرة بواخرها وبازائها شركة لنج الانكليزية وليس لها الا باخرتان يفيض من دخلها الالوف فعرضا الامر بتقرير مفصل الى الاستانة واخذ ثابت باشا والي البصرة على نفسه ان يزيل العجز ويفي الديون ويبقي للخزينة مبلغاً وافراً من الدخل ذلك لما كان يرى من اختلال تلك الادارة ومن إثرآء الذين تولوا أمرها على كثرتهم . فبلغت تقاريره الاستانة في ساعة حظ فعهدوا اليه بالامر وبعد البحث الطويل مع مجلس ادارة البصرة أقروا على تسليم زمام البواخر ومعمل الحديد اللاحق بها الى رجل لا يطمعه كسب المال الحرام وكانت له مشاغل تشغله فاعتذر أولاً ثم قبل استلام تلك المهمة على شرطين أولهما ان لا تطول مدة تغيبه عن البصرة الاَّ اربعة اشهر ريثما يعين ناظر آخر والثاني ان يكون مطلق اليد في التصرف الداخلي والعزل والتنصيب فاجيب الى كلا الطلبين وكأن الله فتح الكنوز على يده فوفيت الديون وارجع جميع عمال معمل الحديد الذين كانوا غادروا عملهم لتأخر دفع الاجور وفاض في خزينة الادارة بضعة الوف من الذهب فتهلل رجب باشا وثابت باشا بشراً ولكنه ما مضى ثلاثة شهور حتى انتزع الامر من يد رجب وثابت واستقال الناظر من نظارته . فقال رجب باشا حينئذٍ على مسمع من الناس : ما عسى ان يتاح للبنائين ان يشيدوا والهدامون من حولهم

اما ادارة تلك البواخر فلم تزل تنحط الى ان عهد بها فى هذه المدة الى الخزينة الخاصة فاصلحت الحال

وان من اراد ان يتتبع امثال هذه الحقائق الثابتة لا يصعب عليه ان يجمع منها المجلدات

فاذا كانت اروقة الاستبداد منصوبة فوق رؤوس جميع رجال الدولة على السواء وجراثيم الفساد منبعثة في ذلك الجو المكفهر ووسائل التقرب الى ولاة الامر تسهل كل ممتنع من الشر . والدولة على ذلك الانحطاط لم تعدم رجالاً هذا شأنهم عاش من عاش منهم في جهاد دائم ومات من مات حزيناً اسيفاً وقضى الكثير منهم على بساط الفقر وهو يقول المنايا ولا الدنايا . اذا كان كل ذلك فما قولك يوم فتحت الابواب فدخل الجميع بسلام آمنين وعلموا ان العدل حل محل الظلم وساد الأمن بعد الرعب والرجاء بعد اليأس . فلا عزل الاَّ لجريمة ولا ترق الاَّ عن استحقاق ولا مصادرة الاَّ لجناية وهذه المدارس العالية كالمكتب السلطاني والمكتب الملكي ومكتب الحقوق والمكتب الطبي تنتج من أولئك الفتيان كل متفان في خدمة امته متثقف علماً وادباً وبازائهما المكتب الحربي لا يغادره الطلاب الاَّ وقد امتلأت صدورهم علماً وحماساً . واذا تعاون الملكي والعسكري وهذه حالهما على انهاض البلاد من تلك الوهدة فماذا نتمنى بعد ذلك من نعم الله

الدستور والخفية

لم تكن الخفية فى عهد الاستبداد من نوع الشرطة المعروفة بالبوليس السري الذي يتعقب خفيةً آثار المجرمين وذوي السوابق والشبهات وهو للحكومة نعم العون على توطيد دعائم الامن . ولم تكن أيضاً من صنف الجواسيس الذين تبثهم الحكومات ارصاداً عسكرية في البلاد الاجنبية فيحملون رؤوسهم على أكفهم وينسلون طامعين بأخذ رسوم المعاقل والحصون واستطلاع أحوال الجيوش وحركاتهم واكتشاف وسائل الهجوم والدفاع ومخترعات القوى المدمرة من سلاح ونسافة وغواصة تسير تحت الماء ومنطاد يحلق في الهوآء

فان هذين الصنفين من الخفية كانا عندنا بحالة ضعف وخمول كما كانت الحال بما خص كل ذي نفع . وانما القوة كل القوة لنوع ثالثٍ باد واضمحل من دول الحضارة ألا وهو صنف المتلصصين لازهاق الارواح واملاء السجون وسلب الاموال بالطرق الفاضحة على ما تراه مفصلاً في تضاعيف هذه الصفحات

تفنن الاقدمون بهذا النوع من التجسس يوم كان الملوك يخشون مزاحمة الاقران وعصيان العمال وانتقاض الرعية كما جرى

لعهد نيرون واشباهه وكثيرين من ملوك الفرس وغيرهم حتى لقد كان لبعض خلفاء الاسلام وملوكه شيء من تلك الخدعة وهي التي جرى عليها هارون الرشيد فكانت من جملة الذرائع التي قادته الى نكبة البرامكة اذ كان له في بطانتهم جوارٍ وغلمان يتجسسون له اخبارهم . ولكن ذلك زمان وتلك أحوال وهذا زمان آخر وأحوال أخرى . ولئن فعل هارون الرشيد ذلك صونًا لسلطته فانما جرى على خطة شائعة لم يكن له بد منها . ومع هذا فقد كان له من وجهٍ آخر طريقة للتجسس لا تزال تتفاخر بها الملوك اذ كان يتنكر أياماً ويطوف على ازياء مختلفة مستطلعاً أحوال رعيته وعماله رغبة منه برفع الضيم ودرء الظلم . وكم كشف من ظلامة مظلوم وضرب على يد ظالم على أثر ذلك التجسس الحميد . بل كم لعظام سلاطين آل عثمان من منقبة في خلال تنكرهم متجسسين . والعهد غير بعيد بالسلطان محمود وما يروى عنه من هذا القبيل

اما الخفية عندنا فلم تكن على شيء مما تقدم بل قامت على نظام محكم لم يسبق له مثيل في تاريخ العالم

اقيمت لها دائرة منظمة في المابين ودعي رئيسها باسماء لا يدل منها شيء على مسماها كقولهم مدير سياسة المابين Directeur de la Politique du Palais Impérial او مدير السياسة الداخلية ولم

يكن يباح لاحد ان يدعوه باسم رئيس الخفية . واني لا ازال اذكر يوماً اذ كنت مع صاحب في قهوةٍ بشارع بك اوغلي واذا باحد اولئك الرؤساء وصل بعربته فترجل ودخل بعظمته يطوف طواف الدهقان الى ان بلغ مجلسنا فوقف صاحبي يسلم عليه وكان يعرفه فاراد على عادة اهل العصر ان يعرف كلاً منا الى الآخر فقال لي : سعادة فلان رئيس الخفية . فما كاد ينطق بتلك اللفظة حتى شعرت بنظرة شزر ارسلها اليه فاوشكت ان تحترق لب فؤاده فامتقع صاحبي وتلعثم لسانه وكأنه اراد ان يتلافى ما فرط فاستطرد وقال : استغفر الله بل هو . . . . هو . . . . هو من اكابر . . . . من اعاظم رجال الدولة في المابين

وكان لتلك الدائرة فروع متشعبة داخل البلاد وخارجها تشعب العروق في الجسم اذ كان عمالها مبثوثين في كل دوائر الحكومة من الباب العالي الى النظارات المنفصلة عنه الى كل فرع من فروعها

وهنالك شعبة منها لقرآءة الكتب والجرائد وترجمة ما كان منها باللغات الاجنبية . وهنالك أيضاً عمال مقيمون خاصةً لتناول زبدة الاخبار وتقديمها الى المراجع العليا وكم كانت تلك المراجع تحذف وتزيد وتعدل على هواها او تستنبط من مخيلاتها ما لم يكن له اثر في تلك التقارير فتعرضه حقيقة ثابتة على المرجع الاعظم . ولم يكن في البلاد كلها من الاقطار القاصية والنائية زاوية خارجة عن رقابتها

حتى قال احد الظرفاء لو تشعبت في بلاد الدولة العثمانية طرق الحديد واخترقت سهولها وجبالها اختراق جند الخفية لكانت بلا ريب اغنى دول الارض

وبعد ان قبضت على رقاب النظارات في الاستانة وجعلت نظارة الضابطة فرعاً ضعيفاً لا شأن له الاّ تلقي أوامرها وملكت نواصي الولاة وصغار الحكام ورأت ان كل ذلك غير كافٍ لاستنزاف دم البلاد خُيّل لها ان في أوروبا متسعاً فسيحاً لتجارتها فارصدت الاموال ألوفاً ومئات الألوف وتألفت منها عصابة لصوص للاتجار بذمم الحاكم والمحكوم فتوهم انها تشتري بذلك المال صداقة الدول وتستميل اليها الرأي العام باستمالة جرائدها وتدرأ عنها شرور أعداء الدولة من أبنائها ولا تعني بهم الا مريدي الاصلاح ودعاة الحرية . ولئن عهدت أحياناً قليلة بتلك المهمة الى سفرائها ووكلائها فلم يكن ذلك الا تمويهاً على عقول السذج من رجال الدولة حتى ضج السفراء تألماً واشمئزازاً وكانت خطتها في ذلك ان تتفق مع أحد كبار اللصوص من الجواسيس على خمسة أو عشرة آلاف أو عشرين ألف من الاصفر الرنان . تأخذ سهمها منه وتنقده سهمه فيذهب الى أوروبا ولا يكاد يبلغها حتى تتوالى تقاريره مبشرة بالفوز المبين أي بمشترى جريدة أو استمالة رجل سياسي وجل ما يكون في كلامه من الصدق انه أعطى بعض ما

أخذ . وليس منا من يعلم ما هي تلك الجرائد ومن هم أولئك الساسة الذين ناضلوا عنا وأفادونا لقاء مال دفعناه اليهم

وأما تجارتهم باعداء الدولة من أبنائها على زعمهم فمن أغرب ما روى التاريخ من المضحكات المبكيات . تعلم هذه العصابة ان في احدى عواصم اوروبا رجلاً ذا شأن بين قومه سئم الظلم ففر الى بلاد الحرية فتقدر له جزآء عوده الى الاستانة مبلغاً معلوماً ونصفه أو ثلثيه جزآء صمته اذا أبى العودة وترسل اليه من يحمل اليه المال مع الوعد والوعيد فاذا فاز الرسول وقلما كان يفوز نقده بعض ما معه واستولى على ما بقي واذا رجع خائباً لم يعدم وسيلة لاستبقاء المال في جيبه تسديداً لنفقات يستنبطها . ولطالما كانوا يغرون رجلاً من عصابتهم خامل الذكر وضيع القدر فيرسلونه الى أوروبا فيصدر عدداً من جريدة يزعم أو يزعمون انها ستنتشر من مطلع الشمس حتى مغربها وستلتف لندائها أمم العالم فتهاجم عاصمة الملك فتنفتح خزائن الدولة لاسترضاء صاحبها فينفح بدريهمات هي في نظره ثروة ولهم باقي الالوف مغنم بارد

وان المجال ليضيق عن ايراد ما يُعرف من امثال هذه السرقات فنجتزئ لك بثلاثة منها مثالاً على ذلك التفنن في تبديد اموال الدولة:

أرسل احد صنائع المابين الى باريس فاصدر عدداً واحداً من جريدة ثم أرسل في طلبه رسول يحمل اربعة آلاف ليرة عثمانية

فنقده منها خمسمئة واستكتبه ايصالاً بالاربعة آلاف واستصحبه معه الى الاستانة فانعم عليه برتبة من ارفع الرتب وعين له راتب لم يكن يحلم به . ذهب ذلك الرسول مرة اخرى الى باريس يحمل المال استرضاءً للعصاة العتاة فلم يفلح فأرشد الى رجل ليس من العير ولا النفير ولا اتصال له باحد من أولئك الدعاة وعلم انه ليس على يسر وسعة فاستدعاه اليه وحسن له ان يذهب الى الاستانة براتب خمسة عشر ليرة فكان سرور الرجل عظيماً واعظم منه سرور الرسول اذا اصطاد قنيصة سهلة المراس اكسبته الالوف ببذل العشرات وارسل التقارير الضافية منبئة انه فاز باستذلال اشهر كتاب العصر . قام رجل آخر في لندن فنشر أعداداً من جريدة فاسترضوه بامتياز باعه بزهاء ثلاثين الف ليرة عثمانية يعلم الله ما كان نصيبهم منها

ولا تسلْ بعد شيوع تلك الانباء بين الناس عن تهافت الانذال على التطوع في ذلك السلك الخبيث . ولقد افلح بعض هؤلاء المتطوعين فما زالوا يحتالون على الانخراط في تلك الزمرة حتى ادركوا بغيتهم بالسعايات المختلفة ثم ما لبثوا ان اثروا بعد الفاقة وارتقوا من درك الخمول الى اوج المجد والعظمة

اما الاموال التي كانت تبذر في هذا السبيل فلا يعلم مبلغها الآن ولكنها لم تكن تقل عن المليون اي انها كانت تربو على

مخصصات نظارتي الضابطة والمعارف مجتمعتين واي فلاح يرجى لحكومة تنفق على الجهل والظلم فوق ما تنفق على الامن والعلم

وعلى الجملة فان الخفية كانت على هذه الدولة اشد بلاء من جميع ما توالى عليها من المحن منذ قيامها وليس في تاريخها صفحة توازي بشؤمها هذه الصفحة السوداء

وان كذلك الاجر على قدر المشقة فانه ليس في تاريخها حتى ولا في زمن فتح الممالك الكبار يوم نعيم عم صفاؤه وابتهجت فيه النفوس ابتهاجها يوم علم العثمانيون باعلان الدستور انهم اذا آووا الى بيوتهم ناموا آمنين لسع تلك الحشرات



الدستور والتعصب

التعصب دينياً كان أو جنسياً اذا لم يتجاوز حسب الدين والجنس الى بغض من خرج عنهما فليس بالخلة المذمومة ولا دخل له في بحثنا . وانما المراد هنا التعصب الذميم الذي يدفعك الى كراهة أبناء غير دينك وجنسك . وهو الآفة الكبرى التي نخرت عظام البشر قروناً طوالاً ولا تزال في بلاد الشرق علة العلل . وانه يسوءنا ان نعترف انها كانت في البلاد العثمانية حتى يوم اعلان الدستور على أشد مظاهرها في كثير من اجزاء السلطنة . وان من أغرب الغرائب التي يدونها التاريخ ان هذين النوعين من التعصب زالا بيوم واحد فكثر الزاعمون انها ثورة فكر بدت يومها لا تلبث ان تخبو جذوتها فترجع الحال الى ما كانت عليه . غير ان من تتبع سير السياسة الداخلية منذ أربعين أو خمسين سنة هان عليه ان يستجلي سبب هذا الانقلاب فيزول معظم غرابته

ان ما توالى على هذه الدولة من كوارث الزمان وما انتابها من الضعف واختلال الاحكام في القرن الاخير اودى او كاد يودي بقوتها فلم تكن ترى من مصلحتها لجهل معظم القابضين على زمام

الاحكام ان تستنير الامة بنور الوفاق والتضامن خشية ان تنقلب عليها وان الافراد القليلين الذين كانوا ينظرون بعين بصيرتهم الى غوائل تلك الآفة القتالة لم يكن لهم من الحول ما يمكنهم من بث رغائبهم ونيلها . وزد على ذلك ان الجهل وحب التقليد كانا لا يزالان فاشيين بين عامة الامة . والجهل رفيق ملازم للتعصب يعيشان ويموتان معاً

ثم اذا نظرت الى الدينين الغالبين في السلطنة وهما الاسلام والنصرانية . والى العناصر المختلفة التي يتألف منها هذا الجسم رأيت هناك أسباباً أخرى تدعو الى هذ الشقاق . فالمسلم باتحاده بالدين مع الامة الفاتحة وقيامه دون المسيحي بعبء الحروب ورد الغزوات لامتناع التجند على المسيحيين يرى له حق السلطة والسيادة . والمسيحي يعد نفسه محكوماً مظلوماً . والجهلة وذوو الغايات من رجال الدين لا يدركون كنه الغرض الواجب عليهم اداؤه بالتهوين على الفريقين . والحكومة لاهية بمشاغلها بل ربما عمد كثيرون من عمالها الى اثارة الاحقاد الكامنة جراً لمغنم يرجونه او غاية يرمون اليها

وان هذا التنافر كان يمتد الى ما وراء هذين الفريقين بمجموعهما فيتناول كلاً منهما بفرقه ومذاهبه حتى لقد كنت ترى التباغض بين أهل السنة والشيعة من المسلمين والكاثوليك

والاورثوذكس والبروتستان من النصارى مساوياً بشدة وطأته لتباغض مجموع أبناء الاسلام والمسيحية

هذا بما خص التعصب الديني واما التعصب الجنسي فلم يكن اقل غائلةً وشرًّا

وهو معلوم ان سياسة التسامح التي جرى عليها سلاطين آل عثمان في عدم التعرض للغات الامم التي دخلت في حيازتهم كانت مع كل حسناتها سبباً في بقاء كل هذه الامم على غير تلاؤم واندماج واللغة التركية على كونها لغة الحكام كانت بحكم المجهول في بعض اجزاء السلطنة . والظاهر انهم حاولوا بعض المحاولة تلافي ذلك التباعد اذ يروى عن السلطان سليم الاول انه على أثر فتح مصر ومبايعة المتوكل على الله العباسي له بالخلافة اراد ان يتخذ العربية لغة رسمية فلم يتسنَّ له ذلك فلا ذاعت العربية ولا عمت التركية فبقيت كل أمة منفردة بلغتها وليس لها ما يكفي من الالمام بلغة الدولة الحاكمة . وحيث لا يحصل التفاهم لا يحكم الاندماج والتمازج

وهكذا بقي أبناء كل أمة ينتسبون الى أمتهم في احوال كثيرة ولطالما هاجتهم عاطفة التعصب الجنسي وانضمت اليها اسباب أخرى يطول شرحها فأثارت الفتن واورثت البلاد الخراب والمتحاربون جميعاً من أبناء دين واحد

ولطالما نبغ من رجال الدولة حيناً بعد آخر افراد كانوا

يتضورون اسى لتفاقم شر هذين التعصبين ويضطرمون غيرة لتلافي ضرهما فلمعت اول بارقة امل بنشر الخط الهمايوني السالف الذكر سنة ١٨٣٩ ولكن القوة كانت لم تزل في جانب الجهل فلم يسفر ذلك الخط عن النتيجة المقصودة . بل عقبته قلاقل واضطرابات كان فيها للسياسة والغايات الشخصية يدٌ فوق يد التعصب

ولم يزل يتعاقب من ذلك الحين رجال يتلقون تلك الفكرة النيرة ويلقونها بعض الى بعض الى ان نضجت على يد مدحت باشا وانصاره فنادوا باعلان الدستور سنة ١٨٧٦ وخيل للناس حينئذ انه قد انقضى زمن الظلمة والشقاق وعقبه عصر النور والوفاق

ولكنه لم يكن الا كوميض البرق حتى تبددت تلك الآمال ووثبت بقية الجهل الكامنة في الصدور واستجمعت قواها فهبت هبتها الاخيرة كأنها أبت ان ترضى الموت قبل ان تدون لها في التاريخ غاية ما يروى عن فظائع الجهل والاستبداد

وهكذا فبينا خُيِّلَ الينا اننا متسنمون ذروة مراقي الفلاح اذا بنا قد هبطنا الى أسفل درك الانحطاط وما أشد الخيبة بعد الفرج

ولكن تلك الخيبة التي أحرجت الصدور أزالت الغشاء عن البصائر فاستنارت الاذهان وأدركت الحقائق وعلم المسلم والمسيحي والتركي والرومي انهم جميعاً في الشقاء سواء . وانه لا مناص لهم الا بالتعاون ونبذ الاحقاد والانضمام يداً واحدة لسحق تلك الايادي

الظالمة والانثناء بعد ذلك الى النظر في اعلاء شأن هذه الامة الواحدة والدين لله

علم المسيحي على اختلاف نحله انه مقيم في بلاد نشأ فيها أجداده من قبله ولا فلاح له الا بكف بصره عن التطلع الى دول أوروبا وبالقاء يده في يد أخيه المسلم لاعلاء شأنهما معاً وشأن البلاد التي نشأا فيها

وعلم المسلم انه لا سبيل الى كم أفواه الاجانب والاقارب ودرء الشبهات وتذليل العقبات والتفرغ الى الصلاح العام الا بمصافحة أخيه المسيحي والسير معاً في طريق ينعمان ويشقيان بها معاً

علم كلاهما ان تلك الايادي الاثيمة التي كانت تدفعهما الى الفتك فريقٌ منهما بفريق انما كانت تتخذ ذلك ذريعة تثنيهما وتثني الناس بها عن مظالمها ثم تنثني اليهما فتبطش بكل فريق منهما على حدةٍ بعد اجهاد قواهما

هذه المذابح الارمنية فماذا جنى منها الارمن وماذا جنى المسلمون. غُرّر فيها بالفريقين فسالت والهفاه دماء الابرياء ودمرت البلاد وتحصن المجرمون في معاقل اللؤم والرياء

كل ذلك عرفه المسلم والمسيحي والاسرائيلي وابن كل ملة من الملل

اذا شكا الارمني لدم يهدر ومال يسلب فشكوى المسلم أعظم

اذ تقوم حول دم الارمني ضجة تبلغ السمآء واما دم المسلم فالى جانب تلك النكبة الدهماء باهراق دمه نكبة الوجوم عن رفع الصوت بالعويل عليه

واذا شكا الكردي او العربي بسوق جيش يقف لعصابته فيتقاتلان وتربو قتلى عصابته على قتلى ذلك الجيش فماذا يقول التركي وصفوة رجالهِ وفتيانه تشد محكمة الوثاق وتقاد الى حيث تقتل او تفرق او تنفى الى اقاصي البلاد

خبر جميع من في البلاد خبر تلك الاهوال فهبوا من رقدتهم هبةً واحدةً فهل بعد هذه اليقظة من غفلة ؟ معاذ الله ان يكون ذلك وقد غُلَّ ذئب التعصب باصفاد الحديد وزج به الى اعماق البحار

وليس هذا باول عهد لتنبه أفكار الخلق الى فتكات ذئب التعصب الغشوم وانما هو أول عهد تنبه جميع الناس اليه على حدٍ سواء. والاَّ فما قولك بتصدي الامير عبد القادر في حادثة سنة ١٨٦٠ وكثيرين من وجهاء المسلمين في دمشق الشام لحماية النصارى مخاطرين لقاء ذلك بأموالهم وارواحهم . — بل ما قولك بما اتاه فؤاد باشا اثناء حادثة الارمن سنة ١٨٩٦ تحت اذقان مثيري تلك الزوابع

شهدتُ تلك الفاجعة الاليمة مشاهدة الرقيب الجازع من أولها الى آخرها ولم أكن هنا لا عيد تلك الذكرى المؤلمة أو لا خطئ فيها فريقاً دون فريق فكلاهما اغتر وسيق غير مختار باغراء أولئك

الفجار . ولكن الباعث على ذكرها رغبة أثبات الانفة التي كانت تهيج صدور الناقمين على هذا التعصب ومثيريه ولم يكونوا بالنزر اليسير . ولكن أعلاهم قدحاً وأعظمهم جرأةً كان هذا المنفي الذي قضى سبع سنين سجيناً يقاسي عذاب الموت وهو حي

شهدته وكنت جاره في فنار باغچه يطوف مدججاً بسلاحه ينهى عن سفك الدماء . يحيي الليل بين هاتيك الاحياء واعظاً منذراً متلطفاً متهدداً على ما تقتضيه الحال . يسأل من انس منه خوفاً ان يحل ضيفاً كريماً عليه . يؤمن الخائف ويرعب الخائن . فحجب الدماء في كل ذلك الجوار فلم تهرق فيه نقطة واحدة وهي سائلة أنهاراً في ما سواه . واذا علمت ان ذلك الجوار بما وليه من فنار باغچه الى موده وقاضي كوي واطراف اسكودار يحوي مئتي الف ساكن تجلى لك مبلغ تلك الهمة الشماء

فعل كل ذلك وهو يعلم انه يجري على غير خطة المابين فما راعه ذلك بل راعه صوت وجدانه

ولا انبئك هنا بما كان من اجلال الاهالي من وطنيين واجانب لهذا الاقدام الخطير ولا افصل لك ما توالى عليه من رسائل الشكر الخاصة عن الرقيم العام الذي امضته النزالة الاوربية برمتها . وما نشر من مقالات الثناء الضافية في صحف الافرنج . فتلك امور يستنتجها كل واقف على تلك الحوادث

ولكن السر الغريب الذي لا يعلمه الناس ان ذلك كان مبدأ النقمة عليه من رجال المابين وانه حتى ذلك الحين كان في أعلى مراقي الحظوة وما انحطت منزلته الا من ذلك اليوم فما وسعهم ان يقولوا له انك أتيت جريمة القتل بحماية الانفس من القتل فما زالوا يحتالون بتوجيه التهم اليه حتى ألقوا به الى تلك التهلكة التي أدت الى نفيه وسجنه وتجريده من رتبه وألقابه وأوسمته

وانا اذا أسهبنا في وصف تلك الهمة الشماء فقد أتينا على فرض واجب الاداء بتدوين هذه المأثرة لذلك الشهم الغيور . وأثبتنا ان في السويداء رجالاً لا يروعهم الوعيد وان راع جماهير الناس . وان روح التعصب الخبيثة لم يخترق الا صدور جهلاء العامة . ولو شهدت يومئذ رجال الدولة أنفسهم وهم تحت نير الاستبداد لرأيت الكثيرين منهم على وجدان فؤآد وان لم يكونوا على جرأته . ولكنهم فعلوا في سرهم فعل فؤآد على رؤوس الاشهاد فكان لهم الفضل في استحياء المئات ان لم نقل الالوف

اما الآن وقد انفقأ دمل التعصب ونفث ثمالة سمّهِ فلا خوف باذن الله من امتلاء ذلك الجراب القتال بعد ان ارتفع الحجاب عن العيون فانكشفت الحقيقة باهرة كالشمس

وان السلطة الظالمة وان ملكت الاموال والرقاب فانها ترتد خاسرةً عن امتلاك الضمائر وقد باحت أنفس الخلق قاطبة بما تكنه

ضمائرها من الرغبة في التصافي ونبذ التعصب وجرى معها تيار العلم والحق والقوة فلا مردّ له بعد الآن وحسبك دليلاً على ارتياح النفوس اليه نشوة السرور بل سكرة الطرب التي هزت البلاد العثمانية وارتجت لها دول الارض

ومع هذا فلا يجب ان يحدو بنا هذا الفوز الى الاستكانة والوقوف حيث نحن مجتزئين بنعرة الفرح . فان شياطين الفتنة لا تزال بالمرصاد تحين الفرص لايغار الصدور حيث لاح لها منزع للعبث والفساد

ولكن دعاة الاصلاح ناظرون ان شاء الله الى كل ذلك فسوف يذلل ما بقي من الصعاب ويمهد ما لا يزال قائماً من العقبات

ولا شك ان مظاهر التواد والاخاء التي عمت البلاد ستكون اعظم ذكرى وامتن اساس لهذا البناء الجديد وان اعلان الدستور وتعميم المساواة يضمنان رسوخه

ولكنه لو اتيح لنا ان نضيف رأياً الى تلك الآراء النيرة لقلنا ان اعظم الوسائل لضمان اضمحلال التعصب الديني تجنيد المسيحيين مع المسلمين واعظم وسيلة لاضمحلال التعصب الجنسي تعميم اللغة الرسمية وجعل تعليم اللغة التركية اجبارياً . فان هاتين الوسيلتين مع تعميم اسباب العلم والتهذيب يضمنان توثيق عرى التواد والاخاء

الدستور ورجال الدين

ان كلمةً قالها شيخ الاسلام لجلالة السلطان يوم اعلان الدستور لجديرةٌ بان تنقش على صدر كل شيخ وقسيس بل على صدر كل مسلم ومسيحي بل على صدر كل عثماني وكل انسان

كلمةٌ ارتفعت كقبس نور تصاعد ثم تكوَّر فوقع تيجاناً على هام دعاة الاصلاح وطلاب الحرية

كلمةٌ نطق بها جمال الدين فكانت جمالاً للدين والدنيا

تلك الكلمة هي قوله اذ استفتي بضرب الاحرار فقال : « بل اجبهم الى رغائبهم وامنح الدستور فانه مطابق للشرع الشريف »

كانت الازمة في اشدها والحزازات في غلوائها والنفوس ثائرة والدماء فائرة والجيش جيشين معدين للتلاحم والتفاني وشيطان الفتنة بالمرصاد لتدمير البلاد . فمن يعلم لولا تلك الكلمة او لو تخللها حرف نفي ما كان مبلغ الشر والعيث ومسيل الدماء بل ما كان مصير هذه البلاد والاعناق مشرأبة اليها من كل صوب يتحين كل جائع فرصة لالتهام لقمةٍ سائغةٍ منها

تلك كلمة ما كان اشبهها بذرة رمل بسكال التي انقلب لها كما قال مجرى سياسة العالم . فما احرانا ان نتخذها شعاراً نتفاخر به

وميسماً ندمغ به جباه جهلة المتعصبين من رجال الدنيا والدين

وما كان اشد سرور دعاة الاصلاح اذ علم العالم اجمع انهم لا يعيثون في الارض فساداً بل يأتون رشاداً وسداداً وينقذون امة عظيمة من ظلمات الاسر وينتشلونها من لجج الضنك والقهر

ان خَدمة الدين كسائر اصناف البشر يتباينون اخلاقاً ونزعات ويتفاوتون هدى وضلالاً . ولكنهم بطبيعة موقفهم اذا اخلصوا الخدمة لله اجدر الناس باصلاح الناس واقدر الخلق على احقاق الحق

وان هذا الدستور الذي شهد شيخ الاسلام بموافقته للشرع الشريف شهادة مزكاة بنصوص القرآن — والشورى حكم الاسلام — ليس من ينكر موافقته أيضاً لنصوص التوراة والانجيل

فلئن رأيناهم يوم اعلانه ملتفين حواليه يتعانق منهم الامام والقسيس والحاخام يُشهدون العالم أجمع على تآخيهم وتترقرق دموع الفرح من مآقيهم فرجاؤنا ان يظل هذا التصافي محكم البنود وثيق العرى . فانهم لا يزالون في جميع البلاد العثمانية ذوي المكانة العالية والنفوذ البعيد . فاذا تقدموا على هذا النهج القويم تبعتهم أممٌ وزادوا مكانة واحتراماً واطالوا حياة نفوذهم ومكنوا سعادة مواطنيهم

ان زمن الجهل والتعصب قد انقضى ودالت دولة الفتن الدينية ولئن ذكر لهم التاريخ سيئات فمَن مِن أصناف البشر تعدوه السيئات وان لهم بازاء ذلك الحسنات الجمة . فليضيفوا اليها الثبوت على تلك

العواطف النبيلة التي لا تزال تبرز ساطعةً منذ إعلان الدستور ولهم علينا المنة الكبرى وعلى الله الاجر العظيم

ومن منا ينكر ان الأمة الاسلامية أعظم أمم الدولة العثمانية بل هي قوامها المكين . ومن ينكر أيضاً ان الترك هم أرباب السلطة العظمى فيها . فاذا كان الشيخ الاعظم المسلم التركي هو المتقدم لبسط يد المصافحة فما أحرى سائر خدمة الدين من مسيحيين واسرائيليين وغيرهم ان يتسابقوا متهافتين الى احراز مثل ذلك المجد الباذخ

لم يكن من مصلحة ظلمة الاستبداد في الحكومة الغابرة ان يؤلفوا بين القلوب اذ كانوا يعتقدون لجهلهم ان وفاق الأمة يدك معاقل صولتهم . اما الآن فقد انقشعت الغيوم وتمزق ذلك الغشاء القاتم

وليست هذه بأول مرة حاول فيه البعض من رجال الدين ولا سيما من المسلمين رتق هذا الفتق فان لم يفلحوا في الماضي الا قليلاً فكل بوارق الفلاح بادية لهم في الحال والاستقبال

ولا أضرب لك مثلاً الا بيروت اذ لم يهج تعصبٌ صدور قوم كما هاج صدور أهلها من مسلمين ومسيحيين في عصر الاستبداد الاخير

كان التنافر فيها بين الفريقين قبل سنة ١٨٦٠ على ما كان عليه

في سائر ثغور البلاد . فلما وقعت حوادث تلك السنة المشؤمة ووجد القتيل المسلم مطروحاً في احد الازقة وثارت تلك الثائرة في صدور الاهالي توقع جميع الاشرار حدوث مذبحة ترتعد لها الفرائص ومع هذا فان الشيوخ منا يروون ما شاهدوه من تعاضد الشيخ محمد الحوت والمطران بطرس البستاني ذلك التعاضد المكين وتآخيهما وكلاهما من جلة خدمة الدين ويذكر القوم مكبرين قيام الشيخ الحوت واعظاً دينياً وخطيباً سياسياً ومرشداً داعياً الى الوفاق فاتى المسلمين والمسيحيين بذلك فضلاً يضاهي فضل عبدالقادر في الشام وفؤاد في الاستانة . ولا يزال يُذكر أيضاً وقوف طاهر افندي الخالدي وذويه مثل ذلك الموقف في تلك السنة في القدس الشريف وحجبهم دماء العباد مخاطرين بدمائهم

وما انقضت تلك السنة والتي بعدها حتى أخذ وجهاء المدينة بموازرة البعض من رجال الدين ينظرون في الوسائل المؤدية الى تبديد الاحقاد فما أتت سنة ١٨٧٢ حتى كانت تألفت منهم جمعية هذا غرضها . عمادها من المسلمين والنصارى المرحومان حسين بيهم وسليم البستاني فخبا ذلك الثوران وخفت الجرائم . ولكن جيوش الاستبداد والتفريق دهمتها بعد بضع سنين فرجعت الحال الى اسوإ ما كانت عليه ولم تزل على تفاقم واشتداد حتى يوم اعلان الدستور

وان أئمة المسلمين اذا ربحوا الاجر العظيم والفضل العميم بارشاد الخلق الى هذا التوائق ووطدوا بذلك أركان سلامة هذه الدولة ونهضتها نهضة لا تحسد عليها أمة من أمم الشرق والغرب . فان رؤساء الدين المسيحي والاسرائيلي على فرض انهم لا ينظرون الاّ الى مصلحة انفسهم دون مصلحة أبناء دينهم ونعيذهم بالله من ذلك فانهم بلا ريب يعلمون ان لهم في بلاد الدولة العثمانية من الميزة والنعم والحرية ما ليس لزملائهم شيء من مثله في جميع بلاد الدول المسيحية . — ولقد سمعنا بآذاننا منذ خمس سنوات كاثوليكياً ورعاً من أعضاء مجمع العلوم (الاكاديمي) الفرنسي يخطب في نادي مدرسة الآباء اليسوعيين بمصر فيقول : هنيئاً لكم يا كاثوليك هذه البلاد فانكم واكليرسكم تتمتعون بعبادتكم بنعمة وحرية نتمنى ان يكون لنا بعضها في بلادنا بلاد الحرية فلا تحسدونا انتم وانما نحن لكم من الحاسدين

فليست بلاد الدولة العثمانية باقل تمتعاً بنعمة الحرية من مصر هذا الجزء اللاصق بها وليست امتيازات خدمة دينها باقل من امتيازات رصفائهم في القطر المصري فانها جميعها مبنية على فرمانات السلاطين العظام

غير اننا نخال الحكومة الدستورية عامدة عما قريب الى النظر في تلك الامتيازات وتعديلها على ما يوافق روح الزمان . فلا

يروعنّ ذلك عقلاء خدمة الدين ولا يثبطنّ عزائمهم بل فليتلقوه بالبشر وطيبة الخاطر اذ كلما قربت مسافة المساواة بينهم وبين عامة الناس أحكمت علائق الود الصحيح بين الفريقين وتسهلت لهم سبل القيام بمهامهم الشاقة

ولقد طالما شكا الناس من بعض خدمة الدين استبداداً يضاهي استبداد الحكام . ولا غرو بذلك فانهم ذوو سلطة وكل ذي سلطة انس جهلاً وضعفاً بمن حوله مال الى الاستئثار بالحول والطول . ولقد طالما قيل فيهم أيضاً ما يقال في ضعاف الحكام من سياسة التفريق حرصاً على سيادتهم . على انهم يعلمون الآن أيضاً ان تلك السياسة اذا افلحت يوماً مع عجز الناس وغفلتهم فانها تحبط بلا ريب في بيئة اليقظة والقوة . فحفظ كرامتهم وكرامة المنتمين الى مذاهبهم انما يكون بوقوفهم موقف المرشد الامين والناصح الموفق . ولم يخفهم ذلك فتنبهوا اليه في العهد الاخير ولهذا هبُّوا يوم اعلان الدستور هبةً واحدةً وكانوا مع الامة يداً واحدةً عاملة على أحكام الوئام . وهذا غاية رجاء الامة بهم فعسى ان يظلوا مثابرين على نهج هذا السبيل ولهم من الله والناس جميل الثواب وجزيل الثناء

الدستور والمهاجرة

المهاجرة مهاجرتان : الجلاء أو هجرة السكان للبلاد وعليه مدار كلامنا الآن . والاستيطان أو وفود الاجانب اليها للاقامة بها وسنبسط البحث فيه بفصل آخر

ليس في بقاع الارض بقعةٌ أخصب تربةً وأصفى جوًّا وأجود ماءً وأنقى هواءً من معظم اجزاء السلطنة العثمانية. ولهذا كانت منذ القدم مطمع الرواد ومحط الرحال . فما بالها انقلبت حالها وقلت رجالها وعافها الغريب وفرّ أبناؤها مغتربين الى أقصى الديار

لا شك ان الحروب واختلال الامن وتخاذل أبناء البلاد وظلم الحكام وجشع جباة الاموال وانتشار الاوبئة كل ذلك مما هو متقدم عهداً على زمن الاستبداد الاخير . وكله من أسباب الانحطاط وتناقص السكان . غير ن الجهل من جهة ووعورة المسالك وتعذر سبل الانتقال من جهة أخرى كانا يحولان دون المهاجرة فيكل الناس أمرهم الى الله والوطن عزيز فيؤثرون الاقامة فيه مع تحمل الحيف على تجشم مشاق الاغتراب وهم لا يجدون اليه سبيلاً . اذا ابتلاهم الله بحاكمٍ ظالم يوماً شكوا أمرهم الى الله وأملوا ان يخلفه ذو رأفة فينصفهم وهكذا لبثوا راضين مقيمين مختارين أو مضطرين

ولكن استبداد الحكومة الغابرة خلق من أنواع المظالم مالم يكن في الحسبان

كان ظلم الحكام في سابق العهد لطمع بمال أو لكسر شوكة وأما في العهد الاخير فزاد على ذينك السببين انتفاء كل سبب . كان خائف الظلم في الزمن السابق اذا كان ذا مال تدبر بحيلة لاخفائه او استرضاء الظالم بجزء منه واذا كان ذا نفوذ واقتدار عمد الى التذلل او المجاهرة بالعدوان وهو بارضه . واما في عهد الحكومة الغابرة فالغني والفقير والامير والاجير والآمر والمأمور كانوا على شفير الهلاك في كل لحظةٍ لا ينفعهم حذر ولا تغنيهم حيطة وهم لا يدرون متى تقرع الابواب فتهجم اللصوص

واذا علمنا مع هذا ان جميع الافكار تنبهت والعلم قد بسط جناحيه ووسائل الاسفار قد تعددت ادركنا لاول وهلة سبب الاندفاع الهائل لمهاجرة الاوطان الى حيث لا واشٍ ولا رقيب والصبر على مضض العيش تملصاً من مخالب الموت او مناسر الذل والهوان

اما المهاجرون من البلاد العثمانية ففئتان فئة فرت من البطش والاغتيال وفئة جلت في طلب الرزق . ومرجع هجرة كلا الفريقين الى الاستبداد . والمسلمون والمسيحيون في ذلك سواء بل ربما كانت الوطأة اشد على المسلمين منها على المسيحيين

لما قلت الارزاق وتقلصت الاعمال باختلال الأمن في البلاد العثمانية وتفتحت ابواب الكسب في امركا واوستراليا ومستعمرات اوروبا الافريقية تنبه اليها الارمن واليونان والسوريون منذ زهاء اربعين عاماً ولكن المهاجرين في السنين العشر الاولى كانوا نزراً قليلاً من صناع الارمن وخدمة اليونان وفعلة السوريين اللبنانيين وافراد من التجار لا يتجاوزون العشرات ثم اخذوا يزدادون شيئاً فشيئاً الى ان باتت كل باخرةٍ من بواخر المساجري مريتيم تحمل كل اسبوع من ثغرٍ واحد كثغر بيروت مئات منهم . وقل مثل ذلك في الارمن واقل من الفريقين اليونان

ثم اذا نظرت الى كل فئة من ابناء هذه الملل الثلاث رأيت لها اسباباً خاصة تدفعها الى الجلاء مما يخرج عن الاسباب العامة

فاليونان اهل ملاحة واغتراب منذ القدم يدفعهم الجد الى انتجاع الكسب حيث وجدوه ولهم منذ مئات سنين تجار من ابناء جلدتهم أثروا في بلاد الغربة يعاونوهم اذا وفدوا عليهم وهي خطة ألفوها قبل الجميع فظلوا سائرين عليها حتى اذا قضوا وترهم من الاسفار انقلب اكثرهم راجعين الى بلاد اليونان مما خرج عن سلطة الدولة العثمانية

والارمن اهل زراعة وتجارة في ارضهم وقل من يغادر ارضه منهم من سكان الارياف . ولكن قليلين من ابناء المدن كانوا

يهاجرون في سبيل التجارة

والسوريون وان كانت بلادهم منذ القدم بلاد الاستعمار وسلك البحار فانهم انقطعوا قروناً طوالاً الى زراعتهم وتجارتهم في بلادهم. وكانت الاسفار لفئة قليلة من التجار أكثرهم من الحلبيين

فلما ضاقت أبواب المعيشة في البلاد العثمانية واتسعت في الديار النائية كان اللبنانيون وفيهم بقية دم من الفينيقيين أول من أثار عاطفة الجلاء كأن روح أجدادهم بعد ان استكنت تلك القرون تحركت في صدورهم فهزتهم هزةً واحدةً

كان لبنان قبل سنة ١٨٤٠ أحزاباً سياسية غير دينية تتضاغن وتتصافى تحارب وتتسالم فتفني الفتن منهم من تفني ويعيش من يعيش وهم جميعاً مشتغلون بزراعتهم قانعون بما قسم لهم من الرزق الضيق . والقناعة رفيق الجهل

ثم تحولت تلك الاحزاب السياسية الى أحزاب دينية لبواعث نبسطها في محل آخر وبقيت الحال على ما هي عليه الى سنة ١٨٦٠

فلما نال لبنان ذلك النظام (النافع في حينه المضر الآن) وزالت الفتن واستتب الأمن وكثرت المدارس فانتشر العلم وعاف اللبنانيون شظف العيش القديم باتت أراضيهم غير وافية بحاجياتهم ولا تجارة تذكر عندهم ولا صناعة ما خلا منسوجات وان كانت من أحسن طراز فلا رواج لها فأخذوا يتطلعون الى موارد أخرى

للمعيشة فلم تلح لهم الاَّ من ورآء البحار

نظروا الى ما حولهم من الممالك العثمانية وهي بطبيعتها من أغنى أقاليم الكرة فاذا بها فقيرة على غناها ضيقة على اتساعها وهم أهل إقدام وذكاء ونزق وإباء فما راعهم تجشم المشاق وضربوا في مناكب الارض كل مضرب شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً

وان في لبنان علاوة على ما تقدم دافعاً طبيعياً لجلاء جزء من سكانه بين فترة وفترة. ذلك انهم جميعاً كثيرو الضنو تتكاثر ذراريهم بسرعة فيضيق القطر عنها . وهو في حالته الحاضرة مع وفرة عدد الجالين عنه للعهد الاخير لا يزال من اكثر جبال الارض سكاناً فالقرى ولا سيما في شماليه مزدحمة ازدحام قرى النمل ولا عبرة باقفار بعضها في هذا الزمن فلا تلبث ان ترجع فتكتظ باهاليها

ومن اعظم اسباب المهاجرة ايضاً انتشار العلم بكثرة المدارس . وان من سيئات العلم اذا عدت له سيئة انه يثني حديث العهد به عن زراعته فقلما تجد ابن فلاح تعلم فعكف على زراعة أبيه بل تسوقه المطامع في المال الى طلب الرزق من باب آخر . وابواب الرزق في لبنان تكاد تكون منحصرة في الزراعة ومصالح الحكومة فاما مصالح الحكومة فانها لا تتسع لاكثر من زهاء ثلثمئة فيضطر سائر المتعلمين ويعدون بالالوف الى هجر الاوطان

وهكذا كانت الجالية اللبنانية مؤلفة من فئتين : فئة الفقراء

المنتجعين العيش بقوة سواعدهم وكثيرون من هؤلاء يستلفون نفقات السفر استلافاً . وفئة المتعلمين الطالبين الرزق من شق اقلامهم او من رأس مالٍ صغير يكون في الغالب ايضاً ديناً بذمتهم

وكان اول من نفخ في ذلك البوق اهل شمالي لبنان حيث الاهالي مزدحمة ازدحام القطافي افاحيصها ثم تابعهم اهالي اواسط الجبل فسكان الجنوب وما لبثت ان امتدت العدوى الى مدن سوريا كدمشق وحلب وبيروت وسائر الثغور والارياف

ولنقل الآن كلمتنا الاخيرة وان طالت عن مهاجري لبنان قبل ان ننتقل الى سائر الجالية العثمانية وخصوصاً ان بين هجرة اللبنانيين وهجرة سائر ابناء السلطنة فرقاً عظيماً في الاسباب والنتائج

ليس لدينا احصاء رسمي لمعرفة عدد المهاجرين اللبنانيين (والاحصاء في زمن الحكومة الغابرة من الكماليات المضرة) ولكنه يؤخذ من الاستقراآت الطويلة التي تتبعناها انهم بين الولايات المتحدة وسائر جمهوريات امركا واوستراليا ومصر وجميع الاقطار الافريقية لا يقلون عن الثلاثمئة الف اي انهم يكادون يساوون عدداً السكان الباقين في البلاد وكل هذه الجالية هجرت البلاد بعد سنة ١٨٧٠ الا افراداً قليلين منها

وكلها أيضاً هاجرت في طلب الرزق فلم يكن الظلم السبب الدافع للمهاجرين ولكنه كان السبب في انصرافهم عن بقاع سوريا

والعراق الفسيحة ومدنها الغنّاء في بلادٍ هواؤها هواؤهم ولغتها لغتهم الى حيث تنهكهم الامراض والمشاق في بلاد يجهلون لغتها وطبائع أهلها . ولقد عرفنا من بعض الاحصاآت الاستقرائية ان ثلثهم يموت فناء بالمرض ومشقة السفر . ويكفيهم من ضروب العذاب الاليم ما يلقاه كل فردٍ منهم يوم مغادرته ثغر بيروت أو يوم عودته اليه . وإنا لعلى يقين انه لوحوكم بعض ولاة بيروت على ما كانوا يؤلمون به أولئك البؤساء وما يبتزونه منهم من الاموال بواسطة حفّاظ الأمن يوم سفرهم أو يوم عودتهم لحكم عليهم بالسجن المؤبد

ومع كل ما نتج عن المهاجرة اللبنانية من تناقص الايدي العاملة في الارض وتناقص النسل بموت بعض المهاجرين وابتعاد الرجال عن نسائهم وانتشار بعض الامراض التي لم تكن معروفة أو كانت نادرة جدًّا كالسل الرئوي والزهري فان النفع كان عظيماً بأثراء زمرة من هؤلاء المهاجرين وتكاثر النقود بما كانوا يرسلونه اليها وتوسيع أبواب الراحة بالمعيشة وتلاشي الجرائم بابتعاد أربابها لقلة أرزاقهم في ديارهم

واللبناني من طبعه شديد التعلق بوطنه يحن اليه وان شاخ في أقاصي الارض ولهذا كانت الجالية في أول الأمر تعقد النية يوم قطع تذكرة السفر على ان لا تلبث في اغترابها الا ريثما يجتمع

لديها شيء من الوفر تستعين به على معيشتها فتنقلب راجعةً الى بلادها وهي تقول ما طالما رددناه لبعض أفرادها

لا يستقر الظبي في فلواته   حتى يعاود ورده المعهودا
والطير مهما فارقت وكناتها   تطوي لرؤيتها الفلا والبيدا

شهدت كثيرين من المهاجرين اللبنانيين القافلين الى الاوطان منذ خمس وعشرين سنة وشهدتهم في دار اغترابهم منذ خمس عشرة سنة وشهدتهم في هذه الايام وشتان بين الحنين الى الاوطان في افئدة هؤلاء واولئك. — كنت اذا رأيتهم مقبلين رأيتهم متهللين بشراً ومعهم كل ما ادخروا في دار هجرتهم يحملونه الى مسقط رأسهم وهم يقولون حمداً لك اللهمّ فقد اذنت ان تضمّ رفاتنا الى رفاة آبائنا . وكنت اذا سألتهم رأيهم في التجنس بجنسية البلاد التي ارتادوها قالوا معاذ الله ان نكون فكرنا يوماً بارتداء حلةٍ غير حلة قومنا وعشيرتنا . ولكن الاقامة في ديار الحرية زادت نفوسهم إباء وازدياد المظالم في الثغور زادهم نفوراً واشمئزازاً وسريان العدوى في اختلال الاحكام من الولايات الى لبنان اورثهم خيبةً في تلك الآمال التي رحلوا بها فضعفت فيهم عاطفة التفاني بحب الوطن وباتوا يطلبون الحرية حيث كانت ومالوا الى الاندماج في سلك الامم التي أنالتهم من حريتها ومالها ذخراً ثميناً . وكأني بحقي بك ناظر المعارف الحالي يذكر يوم كنا معاً بامركا منذ خمسة عشر عاماً والجالية

السورية فيها تعد بالالوف ومعظمهم من اللبنانيين والمتجنسون منهم بالجنسية الامركية قليلون جداً ولكن الميل الى التجنس آخذ في الانتشار بينهم واظنه يذكر ايضاً ما لقيتُ من العناء بصرف كثيرين منهم عن ذلك الميل معظّماً ما كان لديَّ من الامل الضعيف بالاصلاح الذي تيسر والحمد لله فوق ما كنت ارجو ويرجو الجميع

ومع هذا فان بقايا تلك العاطفة لبثت تختلج في صدورهم الى ما قبل هذه السنين الخمس الاخيرة اذ استولى السأم على جميع نفوس المهاجرين فقنطوا من الاصلاح وباتوا يوم هجر بلادهم يفكرون في هجر جنسيتهم فعاد الشر شرين والخسارة خسارتين

ولو تأخر اعلان الدستور عشر سنين لاصبح معظم اللبنانيين من نصارى ومسلمين اوروبيين وامركيين نزعةً وتبعةً . وانظر حينئذ فوق خسارة البلاد الى المشاكل السياسية التي رأينا منها شيئاً كثيراً بالقسر عن المعاهدات التي تقضي باعتبار جميع العثمانيين المولودين في البلاد العثمانية بحال عودتهم اليها عثمانيين كسائر المقيمين فيها مهما طالت مدة اغترابهم ومهما اكتسبوا من الحمايات والتابعيات الاجنبية

هذا جل ما يقال عن الجالية اللبنانية وهي كما رأيت مع بعض مضارها الماضية وكثرة شرورها على البلاد والدولة في مستقبل

الزمن لم تخلُ من الفوائد التي انتجت الرخآء في جزءٍ من السلطنة فهي فريدة في بابها بهذا المعنى. وهي الجالية الوحيدة التي لم يسقها الى الاغتراب مجرد الاستبداد

فاجل الآن نظرك في المهاجرة من سائر اجزاء السلطنة فلا ترى حيث توجهت الاّ نكبة صمآء منيت بها البلاد ومحنة لا يقل بلاؤها عن مجازر الحروب ومجارف الاوبئة القتالة

سرت العدوى في سوريا من الجبال الى العواصم والثغور كما اسلفنا ولكن بجرثومة غير تلك الجرثومة وشكل غير ذلك الشكل

ولسنا بباحثين في المهاجرين السوريين من نفس الطبقة المتعلمة المهاجرة من لبنان ولكن بحثنا الآن في طبقتين اخريين لاقوام للملك اذا ضعفا فيه ونعني ارباب المال والعمل

كان ارباب التجارة من السوريين اذا اثروا فيها اقاموا فيها حتى الموت واذا جمعوا ثروتهم بالاسفار عادوا في الغالب بتلك الثروة فتمتعوا بها في اخريات حياتهم في تلك الربوع الفيحاء. فلما تفاقم الاستبداد والتعنت في الاحكام في العقدين الاخيرين من السنين الفوائت بات السكن في المدن السورية ولا سيما في الثغور وعلى التخصيص في بيروت مما يحرج النفوس في الصدور ومداراة الحكام مما يذهب الصبر والمال. وكانت مصر وهي شقيقة سوريا

في اللغة والعادات والاخلاق وجارتها القربى راتعة في بحبوحة من الأمن وصفاء العيش . توجهت انظار أرباب المال اليها كما توجهت اليها انظار الطبقة الوسطى وأرباب الاقلام فكانت لهم جميعاً ملجأ أميناً يقصده طالب الرزق للاقامة ويرتاده التاجر الغني للنزهة شتاءً ويغتنم فرصة من تلك النزهة لانماء ثروته بالمضاربات بالمال والعقار . فلما كادت تزهق أرواح السوريين في بلادهم تهافت رهط من أعلى طبقات هؤلاء التجار على تصفية أشغالهم وبيع عقارهم بأبخس الاثمان وطلَّقوا سوريا بتاتاً وأتوا فاقاموا في القطر المصري ورحل بعضهم الى أوروبا

وقد اجهدتُ النفس مرةً باحصاء ما نقص من ثروة مدن سوريا وأخصها بيروت وحلب بجلاء هؤلاء التجار عنها في هذه المدة القصيرة فبلغ زهاء سبعة ملايين من الليرات العثمانية

ولا ريب ان هذه الثروة بقيت للسوريين بل زادت كثيراً بما أضيف اليها من الكسب ولكنها خرجت من البلاد ولم تكن لترجع اليها قط لا كلاً ولا بعضاً لو لم يمن الله بنعمة الدستور

ولكن البلاء الاعظم الذي ابتُليت به البلاد جلاء الفلاح عن أرضه

كانت الحكومة الغابرة في أول أمرها تنفذ الاوامر حيناً بعد حين بمنع المهاجرة من سوريا ولكن تلك الاوامر انما كانت

وسيلة لرجال المابين وعمالهم من الولاة لاجل ابتزاز الاموال من المهاجرين حتى ضرب بعض الولاة لنفسه ضريبة معلومة على كل مهاجر وأطلق العنان لحفّاظ الامن يبتزون ما شاؤا لانفسهم ولمن والاهم من حمّال وبحّار وواسطة وعميل

واشد تلك الاوامر كان بحجر الفلاح المسلم القاطن في الولايات السورية مما خرج عن لبنان ومع هذا فلم يكن يُعدم المسلمون وسيلة للانسلال مع النصارى سرًّا في اول الامر ثم جهراً مع مواطنيهم. واليك بيان وسيلة من تلك الوسائل التي كان يتفكه بها اولئك الظلام من رجال الضبط وعملائهم لتسهيل سبل السفر للمسلمين

قصد ثغر بيروت من فلاحي البقاع نحو عشرين رجلاً بين سني وشيعي وبينهم رجل شيعي طويل اللحية فاخذه دلاّل المهاجرة بيده الى عزلة وقال له لا بدّ لك يا صاح من حلق لحيتك . وان من عرف عادات القوم في تلك الاصقاع يعلم ان القضاء على الرجل منهم بقطع يده اسهل عليه من القضاء بحلق لحيتهِ فابى واشتد اللجاج بينهما ورجع الرجل عن عزمه على السفر فاتى رفاقه وخافوا ان يصابوا باذى شديد اذا انثنى عنهم فما زالوا به حتى اقنعوه بقصّها قصاًّ

وهكذا بعد ان كان المهاجرون المسلمون نزراً يسيراً من فلاحي لبنان اخذت الغيرة فلاحي سواحل سوريا ثم امتدت الى

فلاحي البقاع فاعالي سهول حمص وحماة حتى شوهد بين مهاجري المسلمين افراد من البدو ولولا لطف الله بهذا الدستور لسرت الغيرة في داخل البلاد حتى بغداد . وخصوصاً بعد ماكان يبلغ ذلك الفلاح البائس في ارضهِ ان اخوانه في سعة من العيش والحرية في ديار الغربة ومنهم الآن العامل والزارع والتاجر وان لهم هنالك يداً بمعاونة بعضهم بعضاً مما لا يتاح لهم في نفس بلادهم

وهذه الجمعية الخيرية الاسلامية في البرازيل لا تغادر بائساً منهم على بؤسه فتعول المقعد وتداوي المريض وتنفق على المعوز الراغب في معاودة وطنهِ وحكومة الاستبداد في نفس بيروت بددت شمل جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية كما مرَّ بك

قصدت بلودان في صيف سنة ١٩٠٦ مع رفقة من صفوة ادباء دمشق الشام من آل العظم والبخاري والعسلي وشهبندر . وبلودان هذه قرية غناء فوق روض اريض من رياض البقاع تعلو عن سطح البحر ١٥٠٠ متر . جناتٌ تجري من تحتها الانهار لو كانت في ديار الامن والعدل لكانت منتجع الروَّاد . يتمنى ابن باريس لو يُقطع منها بضعة امتار يرتاض فيها بعد العناء ويرتاح بعد العياء . وهي مع ذلك كسائر القرى حقيرة البيوت ذات طرق معوجه ضيقة كمعابر الماعز في غاب الجبال . يصعد اليها النازل من قطار سكة الحديد عند محطة الزبداني في مسلكٍ اشبه بلولب منه

بطريق يمتد متعرجاً على ثلاثة اميال قد اعتادت حُمُر تلك البلاد تسلقه بلا عناء. فركبنا الحمير وخلفنا أصحابها من أهل تلك القرية وكان رفيقي القروي كهلاً نظيري فاخذت اباحثه بشؤون قريته وزراعتها وزوّارها الى ان بلغ بنا الحديث الى عمال الحكومة وجباة الاموال وكنت في كل كلامي اتودد اليه متلطفاً تسكيناً لخاطره ودفعاً لريبتهِ . فلما اطمأن انطلق لسانه وكانت زفراته اطول من عباراتهِ ولم نزل على ذلك الحديث الى ان بلغ بي سفح القمة امام الفندق الذي كنت اقصده ولا فندق سواه بل كان في الاصل بيتاً لرجل عليل من وجهاء الشام بناه لنفسهِ مصيفاً يقيم فيه مستشفياً من مرضهِ ثمَّ جعله فندقاً للمصطافين . فقال لي صاحبي والزفرة تكاد تخنقه هذا هو النزل المقصود متَّعك الله فيه بالهناء والسرور انت ورفاقك واما انا ورفاقي فلقد عقدنا النية على ان نغادر لكم في الصيف المقبل هذه البلاد بما فيها غير آسفين على ارضنا وعقارنا في هذه الجنة الحمراء . سائرين على بركات الله الى حيث نرجو ان نكون بمأمنٍ من ظلم هؤلاء العتاة الفجار الذين حببوا الينا الموت وتناول اجرته شاكراً وانصرف

فقلت في نفسي غوثك اللهمَّ اذا كان هذا مبلغ اليأس والسأم من نفس هذا الفلاح وهو مالكٌ أرضاً وبيتاً وله مورد رزق دائم مما يبذله روّاد جنته هذه فما الظن بالفلاح المأجور الذي

لا يملك كوخاً يأوي اليه ولا شجرة يتفيأ بظلها في تلك السهول المحرقة والدرهم بعيد عن كفه بُعد الرحمة عن قلوب اولئك الظلام

وهنالك صنف آخر من أصناف المهاجرين من البلاد العثمانية لا أجد تعبيراً وافياً لوصف بؤسهم وشقائهم واعني بهم جماعة الارمن . مزيجٌ من التجار والصناع والزراع مقيمون في بلادهم من ولايات وان وأرضروم وطرابزون وما والاها وقد مرت عليهم القرون وهم عائشون بأمن مع جيرانهم الاكراد والترك وغيرهم . اذا حصل بينهم خلاف فانما هو سحابة صيف لا تلبث ان تنقشع . ومنهم زرافات عديدة من ذوي المناصب من كل الدرجات ومن أرباب التجارة والعقار والصرافة وسائر الحرف متوزعون في كل أطراف السلطنة لا يقل عددهم في نفس الاستانة عن المئة والخمسين الفاً

بدأ ثائر الشقاق يثور بين الارمن والاكراد منذ استفحل أمر حكومة الاستبداد أي منذ خمس وعشرين سنة وكانت البواعث شديدة من الداخل والخارج

وليس هنا محل بسط تاريخ المسأله وانما نستخرج من مذكراتنا عنها ما يقتضيه سياق الحديث

لا يكاد الانسان يفقه سراً لمغازي سياسة الحكومة الغابرة اذ كانت تعمل على إضعاف بل اتلاف جميع العناصر المؤلفة منها

هذه الامة فما شعرت بهذا التنافر بين سكان ارمينيا حتى قامت توسع في الخرق فبدلاً من ان تتلافى الامر أرسل اليهم عمال المابين رجالاً على شاكلتهم وكلما تعالت الشكوى زادت المغارم الى ان كانت الفتنة الاولى في وان وموش وخربوط وارضروم سنة ١٨٨٨ فهاجر من الارمن من هاجر ثم خبت النار تحت الرماد ولم تزل بين شبوب وسكون الى سنة ١٨٩٥ حيث كانت المذبحة الهائلة فتجاوزت ارمينيا الى الاستانة حيث قتل في يومي ٢٥ و٢٦ آب (اغسطس) زهاء خمسة عشر الف نفس وامتدت منها الى أطراف البلاد

وما كان اعتراض الوزراء والعلماء وبعض المشيرين ولا مروءة ذوي المروآت كفؤاد باشا على ما تقدم في باب التعصب لتؤثر مقدار ذرة في أفكار عمال المابين فان قوتهم انما كانت باضعاف جميع الخلق فما انثنوا حتى ارتووا بما سال من دماء تلك الالوف

والذي يدلك على ان عمال المابين لم يصدقوا بزعمهم لدى عقلاء الامة انه تيار اندفع بالقسر عنهم فلم يستطيعوا ان يقفوا بوجهه انه لم تكد تصدر الاوامر من يلدز بايقافه حتى أصبحت جميع انحاء الاستانة في نصف ساعة دار أمن وسلام بعد ان كانت بحراً مضطرب اليم بامواج الدماء

ولم تحصر البلوى بقتل تلك النفوس فانك تستنتج بلا ريب

ان سيل المهاجرة اندفع يجرف كل ما لقي في سبيله وانه عقب ذلك مجاعة عمت تلك الاصقاع فباد فيها زهاء ما باد بالسيف والرصاص (والنبوت) وتعطلت المزارع ودمرت البيوت وأقفرت بلاد عامرة فكانت خسارة البلاد في سنة واحدة بالقتل والموت بالمرض والجوع والمهاجرة نحو أربعمئة الف نفس

ولا ريب ان اختلاج عواطف الحنان والاخاء في أفئدة الاحرار في الآونة الاخيرة واندفاعهم مئات والوفاً باحتفال باهر الى مقابر الارمن حيث كانت تنقل الجثث مكدسة على عربات المزابل الى خلجان ترمى فيها ركاماً بعض فوق بعض . وذهابهم بالزهور والاكاليل لتلقى فيها فوق تلك الاضرحة الفسيحة لاعظم دليل على ان عقلاء الامة كانوا ناقمين ساخطين . وان في ذلك لبلسماً لجراح من بقي من أنسباء أولئك التعساء ولكنه لا يعوض البلاد شيئاً من خسارتها الفادحة

وان غوائل المسألة الارمنية امتدت خسائرها الى جميع اجزاء البلاد . خذ الاستانة مثلاً ترَ انه على أثر تلك الحادثة انقطعت عنها الثقة المالية من أوروبا فتعطلت المتاجر وقلت الاعمال ونفد المال وأخذ التجار والصناع من أبناء جميع الملل يهجرونها الى مصر وأوروبا وقد شهدنا مئات منهم في مصر القاهرة وحدها من الاوربيين واليونان والترك والعرب . ولو احصي عدد سكان

الاستانة سنة ١٨٩٧ لاسفر الاحصاء بلا ريب عن نقص مئة الف نفس باقل تعديل

بقيت علينا لفتة مؤلمة الى آخر صنف من المهاجرين وهو تلك الفئة التي كان يجب ان تكون عماد الدولة وروح البلاد ونعني بها فئة الاحرار ودعاة الاصلاح بعرفنا والخونة المجرمين السياسيين وأعداء الدولة باصطلاح عمال المابين

لم يكد مستشارو السوء يشيرون بفض مجلس المبعوثان سنة ١٨٧٧ حتى أخذوا يتطلعون الى جميع الذرائع المؤدية الى اماتة تلك الروح روح الحرية المنبثقه من مساعي مدحت وكمال وانصارهما ودفن المذهب الدستوري بمهده . واذ كان ذلك مطلباً بعيد الشقة عسير المنال لم يروا بداً من الشروع في ابعاد طلاب الحرية عن مواقف النفوذ فمن قوي منهم على كتمان هوى نفسه وتدبر الامر بطول الاناة بقي في منصبه اذا كان ذا منصب أو غودر آمناً في منزله وكلا الرجلين تحت اكناف الخفية . ومن بدرت منه بادرة تشف عما في ضميره أو خيف ان يحول دون مآرب من مآرب رجال المابين ضربت عليه الذلة والمسكنة . ومن هؤلاء نزرٌ يسير يسوءنا جداً ان نعترف انهم انقلبوا الى زمرة الجواسيس فزادوا في بلاء رفاقهم القدماء . ولسنا هنا لنكرر ما تقدم بهذا الصدد في باب رجال الدولة وغيره . ولكن محصل القول ان معيشة هؤلاء الاحرار

في بلاد السلطنة باتت من المستحيلات فلا اولو الامر يطيقون اقامتهم بينهم ولا هم بقيت لهم طاقة على تحمل الضيم وخصوصاً انهم باتوا على شفا المهالك والمخاطر محدقة بهم من كل صوب فاخذوا ينسلون الواحد بعد الآخر ويفرون شرقاً وغرباً . وانسلال كل واحد منهم يلقي الشبهات على عشرات من انسبائهِ واصدقائهِ فيضطر كثيرون منهم الى اللحاق بهِ

ولطالما قُبض على الواحد منهم وهو على اهبة السفر فزُج في سجنٍ فمات فيه او فرَّ منه مرة اخرى . او سيق فاميت خفيةً او أُقصي الى منفاه

واذ كان الغدر بذوي العقل والصلاح والحرية والذكاء اسهل الامور على عمال المابين اخذت الناس الرعدة ومال الجم الغفير الى مغادرة البلاد لغير سبب سابق ولكن خشيةً من سعاية مقبلة ولولا شدة رقابة الخفية وقيام الحرَّاس على الثغور ليلاً ونهاراً وشدة التنكيل بمن قُبض عليه فارًّا لخلت البلاد من أرباب العقول كما كادت تخلو من زرَّاع الحقول

وليس احد من أبناء هذا الصنف ممن غادر بلاده وراء باب رزق اوسع في دار الاغتراب بل كانوا جميعاً بالعكس من ذلك ينزلون عن منصة الرخاء الى بيت الذل الضيق . ولقد شهدنا الكثيرين منهم من أبناء الكبرآء والوزرآء وسعة العيش يحتالون على خدمة

في محل تاجر او ادارة شركة او مصرف براتب كان يتناوله بعض الحشم في دور آبائهم

هؤلاء هم الاحرار الذين انبثّوا في جميع الاقطار وتألفوا في البلاد النائية وهؤلاء هم المهاجرون الذين لبثت بلادهم ودولتهم نصب اعينهم في سرهم وعلانيتهم

ومن كان هذا شأنه فلا بدع ان يصرف كل قواه الى استئصال جرثومة الفساد ودرء شبهات الحساد ومواصلة السعي لبلوغ المراد

قصدوا البلاد الاجنبية شُذّاذاً شرّداً فتآلفوا فيها وتألفوا عصابات وجمعيات سرية وغير سرية في باريس وجنوه ولوندرا ومصر ولم تخلُ منهم عاصمة من العواصم الاوروبية حتى بلغوا أمركا

هذه هي الجالية التي كانت أشد شقاء من سائر الجاليات فأصبحت الآن أسعدها وأي سعادة أعظم من بلوغ منتهى الآمال . وهذه هي الجالية التي تتهافت الآن قافلة الى بلادها تهافت الظباء على موارد الماء في قيظ الهاجرة

ولئن نالت البلاد خسارة بجلائها فستنقلب كل الخسارة ربحاً بعودها الى أوطانها وقد ضمت الى نزعتها الحرة ما أكسبها الاغتراب من زيادة المعرفة والاختبار

واذا علمت انها لاتقل عن السبعين ألفاً منهم خمسة وستون

ألفاً من المسلمين وخمسة آلاف من المسيحيين وانهم جميعاً من ذوي الدراية والنشاط ومن جميع عناصر الأمة العثمانية اتضح لك قيمة الذخر الثمين الذي يعودون به الى أوطانهم ولا عبرة بمن خرط نفسه بينهم من زمرة الجواسيس مدَّعياً انه من دعاة الحرية فذلك عَرَضٌ زالت الآن كل آثاره

ذلك ما يقال اجمالاً عن اصناف المهاجرين العثمانيين ولا شك ان تبدّل الحال باعلان الدستور سيحدث انقلاباً ليس في الحسبان . فيرجع بعض الاصناف كالصنف الاخير برمَّته وسائر الاصناف يعود معظمه الى حظائره ويقف هذا السيل الجارف فينثني من نوى الهجرة عن عزمه . وليس ببعيد عنا ذلك اليوم الذي ينعكس فيه ذلك المجرى منا الينا يوم يستتب الأمن ويسود العدل بصلاح الاحكام فتبيت البلاد العثمانية مطاب المهاجرين من أقاصي الديار فتفتح أبوابها لمن وسعته منهم



الدستور ومأمورو الحكومة

ليس بين دول الارض دولة تزعم الصلاح والنزاهة بكل مأموريها . وليس منهن من لا يكتشف يوماً بعد يوم على جنف حاكم بحكمه أو عبث امين بامانته أو سرقة عامل في عمالته أو زيغ وزير في وزارته فالانسان لا يزال في بون شاسع عن حدود الكمال . ولكنه ليس من دول الحضارة أيضاً من لا يصغي الى نداء الوجدان وصوت الخلق فيغضي عن تعقب الجاني واخذ البريء بجريرة المجرم الا ما ساق اليه خطأ القضاء والعصمة لله

أما حكومتنا الغابرة فلم يكن هذا شأنها بل كان الداء منبعثاً من حيث يجب أن يكون الدواء . ولا همَّ للقابضين على زمام الاحكام الا سدُّ مطمع وادخار ثروة ليوم عصيب كيوم الدستور الذي ابتلوا به . وسواء عليهم أعمر الملك أم اندثر فكلهم قائل قول لويس الخامس عشر : وبعدي الطوفان

وما قولك بمصير حكمٍ هؤلاء هم حملة لوائهِ اذا ذلَّ احدهم تذرع بالغدر والنميمة لنيل مآربهِ واذا ظفر واستقر على عرش جبروتهِ نظر الى الناس نظر الرتيلاء الى الذباب

فكان شأنهم مع هذه الملة شأن عصابة قرصان يطوفون البحر

بسفينتهم فلا هم بمأمن من فتك مدافع وبطش رقيب ولا الضاربون بعرض ذلك البحر بمأمن من غدرهم

فبعد ذلك من لا يلتمس عذراً لسائر مأموري الدولة في تراخيهم ويميل الى الاغضاء عن بعض عيوبهم

ان نصوص القوانين صريحة بتنصيب (ذوي اللياقة) وعدم مؤاخذتهم الا على ما جنته ايديهم وباستبقائهم آمنين في مناصبهم لا يعزلون عنها الاّ الى ارقى منها . وهي صريحة أيضاً بما خص ترقية المأمورين الملكيين والعسكريين

ومع هذا فمن كان من هؤلاء المأمورين يأمن على بقائهِ في منصبهِ عاماً واحداً بل من كان على يقين اذا عيّن والياً لولاية ان يبقى في منصبهِ حتى يتربع في دست حكمهِ وما اكثر أمثال هذا التذبذب في تعيين المأمورين

عين رائف باشا والياً لبيروت سنة ١٨٨٥ ووصلها أهله على ان يقدم اليها في باخرة الاسبوع التالي فلما أرست الباخرة المنتظرة خرج معارفه لاستقباله مع رجال الحكومة فاذا به انقلب الى رؤوف باشا متصرف القدس. وانقلب اهل رائف باشا عائدين الى الاستانة

عين اسماعيل كمال بك والياً لطرابلس الغرب سنة ١٨٩٥ وصدرت الارادة السنية باعداد باخرة خاصة لنقله اليها مع حاشية من المأمورين وكنا من جملة المودعين فما كاد ينزل الى الباخرة مع

عياله وحاشيته حتى أمرت الباخرة بالبقاء فبقيت في ثغر الاستانة ثلاثة أيام ثم أرسل الى طرابلس والٍ آخر

وردالبصرة سنة ١٨٨٢ خبر تعيين طليع باشا والياً عليها فحمل له البرق رسائل التهانئ فارجع على بعضها أجوبة الشكر ورجعت على البعض الآخر أجوبة الاقالة

ولو كان المأمورالمعزول ينقل دائماً الى منصب آخر لما عظمت البلوى ولكن الويل كل الويل لمن عزل لسببٍ أو لغير سبب وكان فارغ الجيب أو قصير الرجل عن اللحاق بأحد صنائع المابين . فلقد شهدت رهطاً من هؤلاء المأمورين الذين لم يجمعوا ثروةً فعزلوا وعاشوا على مضض الفقر والمهانة — عرفت مديراً للتلغراف عزل من منصبه فلبث سنين على بساط الفاقة ولما نشبت به مخالب الجوع عين ساعياً للتلغراف باسعاف رجل من قدماء مريديه براتب مئة وخمسين غرشاً . والفقر خير من الموت

وأعظم من هذه البلوى ما كان يتقاضاه عمال المابين وانصارهم من الولاة وكل ذي منصب مرموق . ولو أذنت لنا بعض المصارف والتجار بمراجعة دفاترهم لاستخرجت منها ألوفاً وملايين من النقود التي كان يمتصها اولئك العمال من ثروة البلاد فيرسلونها تحاويل الى الاستانة خلا ما كانوا ينفذون صرّاً ومنسوجاً ومجوهراً ومنقوشاً بزخارف الصناعة . ولقد شهد العالم ما كان من وجود

الحوالات بالألوف وعشرات الالوف من الليرات في جيوب الذين قبض عليهم من أولئك المختلسين وهم ينوون الفرار من وجه العدل بعد اعلان الدستور في هذه الايام

وأعظم من هذا أيضاً ما فشا من الزيغ في تعيين المأمورين على هوى ذوي النفوذ بلا فحص ولا تدقيق ولا نظر الى السلك وسابق الخدمات. فكم من وال صعد الى الولاية وهو يتمنى قبلها ان يكون في حواشيها. أو معتمد سياسي وقنصل لم يمر بحياته على أبواب نظارة الخارجية مع ان القوانين صريحة بمنع هذه المجازفة

عرفت رجلاً عين والياً بلا سابق خدمة وما كان اعتاه في ولايته. ودرويشاً عين متصرفاً فما كان أجهله فيها وبات جميع أعوانه يتفكهون بالهزء منه

ويجب ان نلحق بما تقدم عدم التناسب في الرواتب بين كبار المأمورين وصغارهم فالكبير يتقاضى فوق راتب أمثاله في اوروبا والصغير لا يعطى الكفاف من العيش ولا تكافؤ أيضاً بين افراد بعض الدوائر كالجمعية الرسومية ومجلس الشورى وغيرهما حيث ترى عضواً براتب الفي غرش الى جانب آخر براتب عشرة آلاف

واضف الى كل ذلك تأخر دفع تلك الرواتب إشهراً في بعض الاحوال وضبطها كلها في احوال أخرى وانظر اذا كان من

الممكن كف يد العمال عن الرشوة ومخالفة قول مدحت باشا كما مرّ في باب « الدستور ورجال الدولة »

عرفت مثمناً بادارة جمرك براتب ثلاثمئة غرش ينقد ناظره مئة وخمسين عثمانية كل شهر حق اغضائه عنه . وعرفت كاتب رفتية براتب ثمانين غرشاً يعول عشرة أنفس وله حظية ينفق عليها الالفين شهرياً . وعرفت بازاء أمثال هذين كثيرين من ذوي الرواتب المعتدلة يشكون العسر ومنهم واحد براتب الفي غرش يقتّر على نفسه وعلى عياله ويشكو الفاقة لانه لا يصرف له في كل السنة الاَّ راتب ثلاثة أشهر

فانظر الآن الى كل هذه الصدوع وما ينشأ من رأبها بحكم الدستور اذ يقلد المناصب اربابها وترتفع عن عواتقهم الضرائب التي تثقل عواتقهم فيثقلون عواتق الامة . وتنتظم اسلاك المستخدمين فيندرج كلٌّ في سلكه الى حيث يسوقه جده واخلاصه في الخدمة. وتتعادل الرواتب فيعطى كلٌّ جزاء عمله . وينتظم دفعها بلا تأخير ويمتنع العزل بلا محاكمة وتتمهد سبل الترقي بلا محاباة . ويعاقب المرتشون بلا رحمة ولا سبيل للرحمة بعد ازاحة تلك الاسباب من وجوههم . لا ريب ان رتق هذا الفتق وحده ينتج من الفوائد الناجمة عن انتظام الاحكام وراحة الآمر والمأمور وزيادة الدخل واصلاح الاخلاق مالا ينتجه بذل الملايين

ولا يذهبنّ عن بالك أيضاً ان اصلاح الحال يصلح بالطبع اخلاق الرجال فلئن فسدت أخلاق معظم المأمورين في الزمن الماضي فذلك لان قادة الاحكام كانوا كتلة فساد لا بد من تأثير جراثيمها الى ما لصق بها . فلقد عرفنا نفراً ممن اتهموا أفظع التهم عرفناهم قبل استعلائهم واستقرارهم على منصّات النفوذ فكانوا اشد الناس تمسكاً بالحرية واشدهم تذمراً من الاستبداد واكثرهم مغالاةً بطلب الاصلاح . فلما ألقيت اليهم اطراف حبال الاستبداد كان لا بد لهم اما من التشبث بها طلباً للرفعة والمال والنفوذ وهذا ما جنح اليه فريقٌ منهم فاضطر الى تناسي مذهبه القديم كما أسلفنا وأما من صرف الوجه عنها حرصاً على الناموس ان يعبث به عابث وهو ما آثره فريقٌ آخر فنُبذ واطُّرح ولولا اعلان الدستور لبقي حتى الآن في زوايا النسيان او وهدة الهوان

فلا ريب اذاً ان إعلان الدستور وحده مصلحٌ من أخلاق المأمورين الفاسدة في زمن الحرية والعدل مالم يكن من الممكن ان ينجع فيه دواء في زمن الاستبداد والظلم

الدستور ومالية الحكومة

لم يكن من مصلحة الحكومة الغابرة ان تضع ميزانية واضحة للدخل والخرج لئلا يفتضح امرها في كثير من أبواب الخرج وتنكشف طرق التبذير وتبديد الاموال ومع هذا فانه يؤخذ من تصريحات نظارة المالية ان الدخل يتراوح بين السبعة عشر والعشرين مليوناً من الليرات العثمانية

وليس من الغريب ان يكون ذلك كل دخل هذا الملك الفسيح وهو لا يكاد يربو على دخل الحكومة المصرية ومصر ليست الاَّ جزءاً منه وان استقلت استقلالاً ادارياً . فان مصر بلاد عمرت بعد الخراب والبلاد العثمانية بلاد كادت تخرب بعد العمار

ولكن الغريب ان يبدد ربع هذا الدخل او ثلثه على قلته في طرق التخريب وتوسيع الخرق

اننا نحرر هذه السطور ولم يكد يمر عشرون يوماً على استلام الاحرار ازمة الاحكام ومع هذا فان الوفر الحاصل حتى الآن من الاموال التي كانت تذهب نفقةً حراماً يبلغ زهاء خمسة ملايين من اربعة مصادر ليس الا . وهي :

اولاً الغاء رواتب الجواسيس ونفقاتهم السرية

ثانياً الغاء رواتب جمّ وافر من عمال المابين ونفقاتهِ التي كانت تذهب هباءً منثوراً

ثالثاً الغاء رواتب الكثيرين من مأموري الحكومة الذين لم يكن لهم شأن في خدمتهم الا قبض الراتب كثلثي أعضاء مجلس الشورى وكثيرين من أعضاء الجمعية الرسومية وبلدية الاستانة (شهر امانت) ومجلس المعارف وهلمّ جرًّا . ويدخل في زمرة هؤلاء كثيرون من الذين كانت الرواتب تدفع لهم وهم في بيوتهم لا يأتون عملاً وانما ينسبون نسبة الى بعض دوائر الحكومة ليقبضوا رواتبهم منها

رابعاً تخفيض الرواتب الباهظة لكبار المأمورين

هكذا كانت تبدد اموال الخزينة وصغار المأمورين يتضورون جوعاً وحماة البلاد من انفار الجند يصبرون على مضض العيش حفاة عراة

وليس من مزاعمنا هنا ان نرسم خطةً لتنظيم مالية الدولة ولكننا ونحن من افراد هذه الامة نود ان يطمئن أبناؤها لماليتها اطمئنانهم لعدل الدستور . وليعلموا ان مالية الحكومة ليست على ما كان يبدو عليها من الضعف فالمجال متسع لانمائها الى ما يعادل ثروة أغنى الدول الاوروبية . فان كل ظواهر الحال تبشر بتحقيق هذه الآمال

دع الآن المستقبل وآماله وانظر الى أبواب الدخل في الحالة الحاضرة ترَ ان التبديد فيه لم يكن دونه في الخرج فان الخلل الذي كان سائداً في الادارة وعدم اطمئنان عمال الحكومة على مراكزهم واضطرارهم الى استرضاء رؤسائهم بالمال الذي لا تتسع له ثروتهم ورواتبهم كل ذلك فتح باب الرشوة على متسع مصراعيه فاذا اخذت مثلاً مورداً من أعظم موارد الدخل كالرسوم الجمركية وعلمت ان كثيرين من مأموري هذه الادارة يجمعون الثروات ببضع سنوات وفراً خالصاً بعد دفع ما عليهم من الضرائب كما رأيت في باب المأمورين اتضح لك لاول وهلة ان خسارة الخزينة كانت عظيمة مهما كان حرص بعض نظارها ونزاهتهم في بعض الاحيان

ثم اذا علمت أيضاً ان كل غرش يدخل جيب المأمور رشوةً واختلاساً على هذا المنوال يخرج من مال الخزينة ثلاثة غروش باقل تعديل . لانه لا بد من ذهاب ضعفي الرشوة للراشي والرائش والبطانة والاذناب ، زدتَ روعاً لغوائل الغبن الفاحش وايقنت بحصول الزيادة العظيمة في الدخل مع اصلاح الادارة وتأمين المأمورين وزيادة رواتب صغارهم . ولتقسُ الحكومة ماشاءت بعد ذلك على المرتكبين منهم

فاذا فرضنا ان الداخل في جيوب المأمورين بطرق الاختلاس لا يربو في كل جمارك السلطنة على المليون ليرة فالزيادة المأمول

حصولها مع بقاء التجارة على حالها تناهز ثلاثة ملايين

خذ الآن سائر أبواب الدخل التي تجبى فيها الاموال بيد عمال الحكومة لحسابها حتى بصرف النظر عن المخصص منها لادارة الديون العمومية ترَ الخلل نفسه فاشياً فيها جميعاً وان تباين فيها الحيف . فالاعشار ورسوم الاراضي وسائر الاموال الاميرية يشمل الظلم بجبايتها الحكومة والاهالي . اما الحكومة فلما تقدم من الاسباب واما الاهالي فلأن الغني منهم يُطمع به ولكنه قد تشفع له الواسطة والمال واما الفقير فينهب ويعرّى ولا شفيع له

وعلى ما تقدم قس أيضاً جميع الادارات الخاصة التي تؤخذ فيها الرسوم بيد عمال الحكومة لحسابها

واضف الى ذلك ما استردته الحكومة وتسترده من الاراضي الاميرية غير الاوقاف التي كانت ذاهبة هبات متفرقة فارجعت الى ادارتها . وزد عليها أراضي الحكومة المهملة الصالحة مذ الآن للزراعة . والمعادن الجاري استخراجها بيد غير أصحابها . والامتيازات التي أصبحت الحكومة في غنى عن بعثرتها يميناً وشمالاً

اذا نظرت الى كل ذلك هان عليك ان تتصور مع همة الحكومة الحالية ان الدخل سيتضاعف باقل من عشر سنين

وهو معلوم أيضاً ان ثروة الحكومة مرتبطة بثروة الامة وان موارد الثروة الدفينة في البلاد العثمانية مما يبهر العقول . وان

جميع طرق استخراج تلك الثروة قد تسهلت وازفت ساعة الشروع في العمل

فلا يستغربنَّ اذاً أحدٌ شدة تفاؤلنا بالخير وقولنا انه بعد استثمار تلك الثروة ببضع عقود من السنين لا يقل نصيب الحكومة منها مع ما هو متوفر لديها الآن عن الثمانين مليوناً دخلاً سنوياً

واننا آتون فيما يلي على بيان اجمالي لموارد تلك الثروة ورجاؤنا ان نكون على مقربة من الصواب « وغدٌ أمره قرين السرائر »



الدستور وموارد الثروة

الزراعة

القِ نظرك على رسم الكرة الارضية وامعن في بلاد الدولة العثمانية يتضح لك بصرف النظر عن كل ما انفصل عنها انها لا تزال قابضة على صفوة خالصة من قارات آسيا وأوروبا وأفريقيا

فلنغادر الآن البحث في مواقع هذا الملك المتسع الارجاء بالنظر الى القوة والسياسة ولنقصر الكلام على الزراعة التي كانت ولا تزال أثبت موارد الثروة لهذه البلاد وكل البلاد

تبلغ مساحة البلاد العثمانية عدا الولايات الممتازة مليوناً و١٥٦ الف ميل مربع فاذا ضممت مساحة فرنسا وهي ٢٠٤٠٩١ ميلاً الى مساحة المانيا وهي ٢٠٨٧٣٨ ميلاً الى مساحة انكلترا وهي ١٢١١١٥ ميلاً الى مساحة ايطاليا وهي ١١٤٤٠٩ أميال بلغ مجموع اتساع هذه الدول الاربع مجتمعات ٦٣٨٣٥٣ أي ببعض زيادة على مساحة نصف السلطنة العثمانية

فانظر الآن ماذا يكون مورد الثروة الزراعية في هذه الاقطار لو عمرت

ليس من شأننا هنا ان ننظر الى كل قطر على حدة ونبحث

بحثاً فنيّاً في طرق زراعته وبيان الصالح منها ووضع القواعد المؤدية الى استثمار تلك الثروة فان ذلك درس موكول الى عناية أربابه واولياء مراجعه في الادارة الدستورية وهم بلا ريب فاعلون

على انه لا بدّ لنا من القاء نظرة عامة نتبين في خلالها ما يتدفق من ميازيب الثروة على البلاد من وراء تلك العناية تطييباً لنفوس اخواننا العثمانيين ولا بدّ لنا أيضاً بنوعٍ خاص من بذل الجهد لازاحة وهم شائع بين ظهرانينا اذ يتساءلون حوالينا انى يتسنى استحياء تلك الاراضي البائرة ولا فلاّح فيها ولا ساكن مقيم في الوف من اميالها . فاذا طُلب الزارع من داخل البلاد فليس ثمّ الاّ البدوي وهو عدو الحرارة . واذا طلب من الخارج فهنالك نفقات لاقبَل للبلاد بها وعقبات جمة تقوم بوجه انتقاله اليها خلا ما ينظر من المحذورات في المستقبل

فحسبنا للاحاطة بطرفي هذا البحث ان نقتطع من البلاد جزءاً نتخذه مثلاً يقاس عليه

دونك الخطة العراقية فهي مع شمولها بلاد ما بين النهرين تمتد مما يلي ديار بكر جنوباً الى خليج العجم شمالاً ومن حدود بلاد ايران شرقاً الى حدود سوريا غرباً وتشمل ولايات الموصل وبغداد والبصرة وقسماً من ولاية ديار بكر وهي بمساحتها تزيد عن مساحة فرنسا وبخصب تربتها لا يفوقها قطر في العالم تخترقها

مجاري مياه أنهر من أعظم الانهار . ففيها دجلة وفيها الفرات وفيها الزاب الاعلى والزاب الادنى وذيالة وفيها شط العرب ملتقى الانهر ذلك البحر الفياض المغني بمده وجزره عن وسائل الارواء

ذلك قطر قامت فيه بعواصمها أعظم دول العالم في العهد القديم من البابليين الى الاشوريين الى السلوقيين خلفاء الاسكندر الى الفرس الى فخر دول الاسلام دولة العباسيين .

ذلك هو القطر الذي رغب محمد علي أن يستبدله بمصر وما والاها مما دخل في حيازته من بلاد الدولة العثمانية فلم يفلح

ذلك هو القطر الذي وقف هيرودوتس أبو التاريخ واجماً عن وصف تربته وخصبها خوف أن تنسب اليه المغالاة والكذب مهما خفف من الاطراء . ولا غروَ فان جميع الدول التي احتلته كان لها من ورائه الثراء العظيم . وهذه بابل مع زيادة عدد سكانها في ابان عظمتها على الخمسة والعشرين مليوناً وامتلاء خزائنها بالمال من موارد ثروته كان حاصل زراعتها كافياً لمعيشة سكانها ويفيض عن الحاجة فيصدر مشحوناً الى سائر البلاد

وهذه الدولة العباسية العظيمة مع بسط سلطتها على سلطنة لم تكن سلطنة اليونان والرومان بازائها شيئاً مذكوراً كان الكثير من دخلها من السوادوخراجه وليس السواد الاَّ قسماً من هذا القطر فلئن كان الزمان قد أشقاه كما تشقى الدول فتبدد سكانه وبارت

اراضيه كل هذه القرون فتربته لا تزال في ارضها بل زادت خصباً بالراحة بعد العناء ومياهه لا تزال تجري نادبة تلك الازمان التي كانت تحيي فيها تلك الرياض فتتسرب في رياض فيحاء بدلاً من جريها الآن مندفعة الى البحر رهبة من وحشة تلك الفيافي والقفار

انظر الى مصر وهذا النيل يفيض لبناً وعسلاً بما أُحكم فيه من وسائل السقي وما ساد فيها من الامن والعدل وقد كانت لعهد قريب كسائر ولايات الدولة يشكو فلاحها الفاقة وتشكو خزينتها الافلاس

ومع هذا فتربة العراق اصلح من تربتها والاراضي السبخة اقل من نظائرها في مصر والمطر في العراق يعين على السقي بما لا يتسنى نظيره في مصر . فمعدات الثروة الطبيعية في افسح ميادينها . فاذا استتب الامن واحكمت وسائل السقي وتمهدت طرق النقل ووُجد الفلاح عادت الى البلاد ثروتها في عهد بني العباس وزادت

اما الامن فالحكومة الدستورية ضمين استتبابه فيما يلي من الزمن واما السقي فمن العبث ان نبحث في سهولتهِ في هذا العصر عصر العلم والاختراع مع توفر الادلة الاثرية والتاريخية على احكام اصوله وطرقهِ في تلك البلاد منذ القدم . وهذه آثار النهروان وسدوده وترعه تشير اشارة واضحة الى انه كانت هناك مستودعات للمياه شبيهة بخزانات مصر تعاقب على انشائها اهل بابل واشور

والفرس ولم يغفلها المتقدمون من الخلفاء العباسيين حتى روي عن بعضهم انه عجز عن الوقوع على مئة جريب خرب غامر في نقطة واحدة . واننا لا نستغرب ان تكون الترعة العظيمة البادية آثارها في صحراء قاحلة من السماوة الى ما بين البصرة والزبير الى خليج فارس والمعروفة الآن بنهر عمر من اعمال بعض اولئك الخلفاء

ولكنه منذ بدأ الضعف في الدولة العباسية في أواسط عمرها اخذت ثروة البلاد في التدني باسرع مما ترقت وظل الخراب يتوالى والسدود تقوض والترع تجف وتفيض المياه في المستنقعات أو تذهب هدراً الى البحر ويفر الفلاح وتبور الارض الى ان بات المزروع منها الآن نقطة في بحر

ولقد كان بعض الولاة العثمانيين يفكرون حيناً بعد حين ببعض الاصلاح ولكنهم لايتجاوزون التفكير الى التدبير لاشتغالهم بالفتن الداخلية أو انصرافهم الى مطمع خاص . واول من فكر منهم فكراً حقيقاً بالاصلاح كان رشيد باشا المعروف بالكوزلكلي ولكن المنية فاجأته سنة ١٨٥٧ ولم ينجز عملاً

واما المصلح الحقيقي الذي وضع الخطط اللازمة وشرع في العمل فانما كان مدحت باشا . ولو طالت مدة ولايته عشر سنين لغادر العراق جنةً غناء فان المهندسين الاوروبيين الذين استقدمهم خاصةً لوضع مشروعات الاصلاح وضعوا التقارير الوافية عن كل

وسائل السقي وتجاوزوا الى ما وراء ذلك بوضع الخرائط لكل الشؤون الزراعية . واذ كان ذا همة شماء لا يكاد يفكر حتى يشرع أخذ حالاً مع كثرة الشواغل في شق الترع وتسهيل طرق الاتصال كما أسلفنا في باب « رجال الدولة » ففاجأه أمر الرجوع الى الاستانة وساد من بعده حكم الاستبداد فلم يقم بعده من الولاة من يصلح لانجاز تلك الاعمال الخطيرة حتى ولو أراد

أما الافراد من أبناء الدولة والاجانب من المهندسين ووكلاء الشركات الذين فكروا باستحياء طرق السقي على مناهج مختلفة فكثيرون وقد كان كاتب هذه السطور فيما نعلم أول من رفع في العهد الاخير تقريراً مسهباً الى نظارة النافعة بهذا الشأن وطلب التصريح بارواء بغداد وضواحيها بالرافعات البخارية وذلك سنة ١٨٩٢ وسعدي بك منفي قبرص محاسبه حي النافعة يومئذ كان من أعظم الموازرين . ثم فكر بعض الاجانب بالاتساع في العمل الى ما يماثل أعمال الري في مصر . وكان السر وليم ولكوكس الانكليزي اطولهم باعاً واكثرهم خبرةً واقتداراً وقد جرت لنا معه مباحثات تحققنا في اثنائها الخبرُ بالخبر . فصمم على الشروع في العمل اذا اسعفه الحظ بتأليف شركة ونيل الامتياز فشخص من مصر الى انكلترا فالاستانة ومنها الى العراق ورسم بعد عودتهِ خطة من اكمل الخطط تشف عن علم واسع واختبار طويل وأودع ذلك

في كتاب دعاه « ري العراق » استتم فيه البحث من كل وجوهه ولهذا أحببنا الاشارة اليه في هذا الموضع لانه يحوي من البحث العلمي والعملي ما يشوق الاطلاع على مثله رجال الدستور

أما وسائل السقي المستعملة الآن فمع انها من أقدم طرز فقد كان يرجى منها ثروة عظيمة لو لم تكن منحصرة في دائرة ضيقة وفي اكثر البلاد لا تكاد الاراضي المزروعة تتجاوز مجاري الانهر ومع هذا فانه يفيض من حاصلات البلاد ما يُشحن بمئات السفن الى الهند وسواحل البحر الاحمر وأوروبا من التمر والحنطة والشعير والسمسم والهرطمان والارز وغير ذلك مما اعتاد الاهالي زرعه . وان كل ما زرعه الافراد أيضاً على سبيل التجربة اسفر عن احسن النتائج فقد زرع فيها القطن المصري وزرعت النيلة والتنباك والتبغ وقصب السكر وكان جميعه أحسن أصنافه في أجود تربة في بلاده وافلحت ايضاً تربية دود الحرير على التوت الكثير المزروع فاكهة وخشباً وطعاماً للماشية

ولقد كان من الواجب مع هذا الخصب الغريب ان لا يهمل في تلك البقاع شبرٌ بوراً ولكن الواقع بخلاف ذلك فاذا صعدت في شط العرب من مصبه عند الفاو الى البصرة ومنها الى القرنة عند ملتقى الفرات ودجلة على مسافة تقرب من المئتي كيلومتر ورأيت جنائن النخيل الباسقة متراصّة على أكثر تلك المسافة من على كلتا

الضفتين ولم تصعد الى دكة قبة الربان على ظهر الباخرة لترى ما وراء تلك الرياض خُيل لك انك في بلاد عامرة غاصة بالسكان . ولكن لو وقفت بك الباخرة على أحد الصوبين ونزلت منها متوغلاً بين تلك الجنائن علمت ان نظرك قد خدعك وان العمار في اكثر تلك الارض لا يتجاوز الجرف الى أبعد من ميل الى ميلين وانك في بعض المواضع ترى الارض البور متصلة حتى الى ثغر النهر

وما أعظم ما تكون دهشتك اذا علمت بعد ذلك ان جميع تلك الارض في غنى عن كل وسائل العلم والاختراع لخزن الماء لارورائها اذ يتناوب المد والجزر مرتين كل يوم وليلة في خليج العجم فيقف ساعة المد في وجه مجرى المياه العذبة فتنقلب على عقبها مرتفعة فتملأ الترع والانهر المحفورة بين تلك الارض فترويها بلا نفقة ولا عناء على طول تلك المسافة الى القرنة ولا تقف هنالك بل تتجاوز شط العرب الى مجرى كل من الفرات ودجلة على مسافة أميال

فالارض التي تتناول الماء بتلك السهولة لا يبقى على صاحبها الا ان يفتح لها مجرى تسير فيه مهما طال واتسع . ومع ذلك فهي على ما ذكرنا من ضيق النطاق وذهاب فائدة كل ما وراءه

فاذا كانت تلك حالة الارض الغنية عن يد الصناعة لسقيها والمحيطة بمقر ولاية تضمن حفظ الامن فيها فما تكون حالة ما سواها

مما يحتاج الى خزن الماء او مما توارى عن نظر الحكومة في الاطراف

وان البصرة مع قلة ما يزرع من ارضها الفسيحة تعد بالنسبة الى عدد سكانها من اعظم البلاد ثروةً واكثرها حاصلاً فما يكون شأن تلك الثروة لو امتدت زراعتها الى مئات الوف الاجربة التي تكنفها من كل جانب

ولكنك اذا تجاوزت ملتقى النهرين في القرنة ومضيت صاعداً في مجرى ايهما شئت غضضت طرفك رهبةً مما ينالك من وحشة تلك القفار التي كانت في غابر الزمن جنة الارض . واذا بدا لك بشر في غير المدن والقرى القليلة القائمة على مسافاتٍ شاسعة بعض من بعض هالك ما رأيت من مظاهر الفقر والاجسام العارية

تصعد في دجلة من القرنة الى بغداد في مسافة نحو اربع مئة وخمسين ميلاً وتصعد في مثل تلك المسافة الى ما فوق الموصل فما خلا ثلاثة او اربعة بلدان صغيرة كالعمارة وكوت الامارة وسامرّا لا تكاد ترى الاّ قرية حقيرة او نزلاً من زراع القبائل ينزلون اليوم فيرحلون غداً

وتصعد كذلك من القرنه في الفرات الى ارض المنتفق والحلة وهيت وعانة حتى دير الزور ومسكنة قرب حلب فيحصل لك مثل ذلك الانقباض وان كانت مجاري الفرات اكثر ريعاً من مجاري اخيه دجلة

وقل مثل ذلك في مجرى ذيالة المنحدر من جبال العجم الى بلدروز وخراسان حتى الخالص الى مصبهِ في المخلاط بدجلة

واذا رأيت نهراً او جدولاً متشعباً من احد هذه الانهر سواء كان مسرباً شقته يد الطبيعة او ترعة شقتها يد البشر وسرك ما علمت من نفعها في ارواء الارض هالك من جهةٍ اخرى ما تعلم بعد ذلك عما يتأتى عنها من الضرر ايام الفيضان لعدم احكام السدود او عدم وجودها فتنتشر منبسطةً على الاراضي المحيطة بها فتلبث اهواراً تفشو منها الاوبئة فتفني السكان او تبيت معاقل يتحصن بها شذاذ العشائر البادية فيبيتون بمأمن على سلبهم وعيثهم

ولو حسبت الخسائر التي تتأتى عن طغيان المياه حتى في نفس بغداد سنة بعد اخرى لتجمع لديك منها وحدها رأس مال يكفي لانشاء خزانات تضاهي خزانات مصر عظمةً ومتانةً

ولقد حاول بعض الولاة والحق يقال تلافي شرور ذلك البلاء غير مرة وارصدوا المبالغ الوافرة وانشأوا السدود حيث بلغ الضرر اشده فكانت النتيجة ان الوكلاء والعمال يقتسمون ما بينهم ذلك المال الا قليلاً منه يقيمون به سدًّا من طين لا يلبث ان ينكسر من نفسهِ او تقضه العشائر التي كانت تتخذه ملجأ ومأوى . ومع ذلك فان جميع العشائر التي الفت الزراعة لا تأنف ايان دعت الحاجة الى اقامة تلك السدود عن التطوع للعمل فيه اما عن طيبة خاطر

واما امتثالاً لاوامر شيوخها وحسبهامن الحكومة تشويقاً وترغيباً ان تتعهد باعطائها قسماً مما يجف من تلك الاهوار بعد انحسار الماء عنها

وقد كان مدحت باشا رسم لذلك خطة اضطر الى مغادرة بغداد قبل انفاذها . فنشط اليها والي بغداد رديف باشا بعد رحيل مدحت عنها بسنة واتفق مع ناصر باشا السعدون شيخ عشائر المنتفق على انشاء سد الجزائر العظيم على ان يقوم ناصر بجميع نفقاته ويجمع الوف العمال من عشائره ولقاء ذلك يعطى قسماً عظيماً من الاراضي التي تنحسر عنها المياه . فهب ناصر للعمل واستعان خلا عشائره باهل البصرة فانضم اليه قاسم باشا الزهير ببضعة آلاف من عربانها ولم تمض بضعة أشهر حتى تمَّ انشاء ذلك السد وهو وحده لو بقي قائماً لكان ينبوع رزق وخير لا ينضب اذ كان يصلح هواء ولاية البصرة بجفاف تلك الاهوار وتغزر مياه الفرات بارتدادها الى مجراها وتعمر كل البلاد الممتدة من سوق الشيوخ الى البصرة على مسافة أيام

ولكنه من جهة كان غير محكم البناء وغير قائم على أصول الصناعة ، ومن جهة أخرى رأى ناصر نكولاً من الحكومة عن انفاذ ما تعهدت له بهِ ، ومن جهة ثالثة ضاقت المسالك باوجه قبيلة المعدان التي كانت تنزل بجواميسها تلك الاهوار فما مضت مدة

وجيزة حتى تقوضت أركان ذلك السد فتفجرت المياه وانتشرت فغطت تلك السهول فغادرتها كما كانت ميدان بلاء ووباء

ولا شك ان تلك الاعمال الخطيرة لو لقيت من الحكومة أقل عناية والتفات لقامت على أمتن ركن وأسهل سبيل . وسد الهندية أعظم دليل يستشهد به

كان أهل الحلة يشكون عكس ما يشكو منه اهالي ولاية البصرة فان ترعة الهندية (المدعوة بهذا الاسم نسبةً الى اميرة هندية شيعية قدمت في أوائل القرن الماضي لزيارة مشهد علي والحسين في النجف وكربلاء فراعتها قلة الماء فيهما فشقت هذه الترعة على نفقتها) أخذت تتسع على مرّ الايام حتى تحولت اليها مياه الفرات وانحسرت عن جميع الاراضي الممتدة من المسيَّب الى الحلة فكان الخطب عظيماً وضج الاهالي بالويل والثبور وتبرعوا بتقديم النفقة والعمال فقبض عمال الحكومة المال جميعه وأنفقوا ربعه في العمل فاقيم سدٌ لم يعش الا أياماً معدودات فرجعوا الى جمع المال مرة أخرى وفعلوا فعلتهم الاولى فاسفرت عن تلك النتيجة

وسنة ١٨٨٩ عين سري باشا والياً لبغداد نخالف خطة سلفائه وطلب المال والمهندسين من الاستانة واستعان بوكلاء الاراضي السنية فبادرت الحكومة بارشاد سفارة فرنسا الى إرسال بعثة علمية يرئسها شُنْدَرْفَر المهندس الفرنسوي فقدر النفقات اللازمة

بثمانمئة الف فرنك لا غير وقد كان الولاة أنفقوا اضعاف ذلك المبلغ فلم يأتِ بثمرة . فأرصد المال في الحال وأقام شندرفر وأعوانه على العمل بعلمٍ وإخلاص بضعة أشهر وانتهوا منه سنة ١٨٩٠ فرجعت المياه الى مجاريها وعمرت الحلة بعد ان كانت على قيد شبرين من الخراب التام . وحييت ألوف الاجربة من أملاك الاهالي ومستملكات الخزينة الخاصة — وهذا هو العمل الوحيد من نوعهِ في أيام الحكومة الغابرة

على انه لا يجب ان ننسى هنا تذرع المقربين بكل وسيلة من الظلم لتبييض وجوههم المسودة اذ قام وكلاء الخزينة الخاصة بدعوى الحرص على المصلحة فاستقطعوا الجانب الاعظم من أملاك الاهالي وأضافوها الى الاراضي السنية وكان جزاء المطالب بحقه المبيت في ظلمات السجون . ورحم الله ابراهيم الحكري فانه مات بتلك الحسرة

ذلك مجمل ما يقال بالايجاز عن أرض العراق وحالتها الزراعية في الوقت الحاضر . ولقد يظن لأول وهلة كما تقدم ان أرضاً هذه حالها من الاهمال وقلة الرجال لا يتسنى استحياؤها الا بعد معاناة الاهوال ومرور السنين الطوال . فلا بد لدفع هذا الريب من إلقاء نظرة عامة على القبائل البادية المنتشرة في تلك الاصقاع

فاذا نظرنا أولاً الى الفلاحين المشتغلين الآن بزراعة الارض العامرة في العراقين العربي والعجمي رأيناهم جميعاً من أبناء تلك

القبائل العربية ومن بعض القبائل الكردية في أعالي البلاد يقبلون بجدٍ ونشاط على حراثة الارض من الفاو عند خليج العجم الى ديار بكر بطريق دجلة والى مقربة من حلب بطريق الفرات

فاذا تيسر لهم المال والأمن تحضروا ولبثوا في مواضعهم والا فالبيداء غير بعيدة عنهم فيرجعون الى بداوتهم . فالذين طال عهدهم بحراثة الارض كالدواسر والعوامر قرب مصب شط العرب والعيدان قرب البصرة في العراق العربي وبني كعب على ضفته الشرقية في العراق العجمي يكادون لا يفترقون بشيء من طباعهم عن زراع الحضر الا بشيء من النزعة البدوية يهبون اليها عند تفاقم الظلم . ويلحق بهؤلاء ألوف الفلاحين من عشائر المنتفق العديدة المنتشرة على شواطئ الفرات مما يلي سوق الشيوخ والسماوة والحلة وبني ربيعة فيما يلي كوت الامارة . وهنالك عشائر كثيرة ممن يتراوح بين البداوة والحضارة تبعاً لأحوال الزمان وسياسة الحكام كبني أسد وبني لام على دجلة وبطون وأفخاذ كثيرة من عشائر المنتفق على الفرات ويلحق بهؤلاء بعض أفخاذ شمر والقبائل الكردية النازلة في صعيد العراقين

واني مورد لك الآن برهاناً حسياً يثبت لك سهولة الوسائل المؤدية الى اقبال أبناء تلك العشائر بكليتها على حراثة الارض

ان للخزينة الخاصة في تلك البلاد أملاكاً متسعة تعرف

بالاراضي السنية وليس من غرضنا الآن التعرض لتاريخها وطرق استملاكها فنقصر البحث في كلمة عن فلاحها

ارتأى وكلاء الخزينة الخاصة ونعم الرأي ما ارتأوا أن يخصوا فلاح الاراضي السنية بنعم تشوقه الى الاقامة على حراثة الارض فاعفوه من الخدمة العسكرية ووسعوا له في الرزق وجعلوه بمأمن من تعدي الحكام ورفعوا عنه جميع التكاليف العامة والخاصة فاطمأن واخلد الى السكينة وانقطع الى زراعته فاخصبت ارضه فاشبعته فارتاح الى الحضارة ونبذ البداوة نبذاً مؤبداً وأصبح في نعيم تحسده عليه سائر العشائر حتى بات كثيرون من رؤساء العشائر يتقربون ببذل المال رشوةً الى من يفسح لهم مجالاً فيها ينزلونه ويقسمون الايمان ويعطون الضمان على اخلاص النية وصدق الخدمة

ذلك مثال واحد على فعل المجاملة بأولئك العربان وأما أمثلة السياسة الخرقاء والظلم فلا يحصرها احصاء، ودونك مثالاً يتناول المسألة من طرفيها

كانت البقعة المحيطة ببلدة العمارة منذ بضعة عقود من السنين قاعاً بلقعاً ليس فيها الا شرذمة من الجند تقيم فيها بين البصرة وبغداد اتقاء لشر القبائل البادية ولهذا كانت تدعى الاوردوي نسبةً الى نقطتها العسكرية . فهاجت الحمية أحد المتصرفين فما زال يجامل ويشوق بعض الزعماء من بني أسد وبني لام حتى أسكنهم هنالك

وخفف عنهم الضرائب فحرثوا الارض وزرعوها فعمرت واثمرت وكانوا كلما زاد اطمئنانهم زادوا عدداً وزاد حاصل أرضهم وتبدل حال ذلك القفر بمدة خمس سنين ثم عزل ذلك المتصرف وليس في الوقت متسع للتحري عن اسمه وحقه أن يدون بحروف الثناء . فابتلاهم الله بخلفٍ اعماه الطمع واصماه الجشع فدعا اليه الشيوخ وزجهم في السجن استنزافاً للمال فاحتالوا تخلصاً من مخالبه الناشبة برقابهم متظاهرين باخلاص النية وصدق الولاء وطلبوا اليه ان يرفقهم بمن يحمل اليه المال بعد الافراج عنهم فاطمأن لهم لان جميع حاصل الزراعة كان لا يزال على بيادره . فقاموا في حنادس الليل وحملوا ذلك الحاصل على أباعرهم وانقلبوا راجعين بخيامهم الى بداوتهم وبارت الارض مدة طويلة الى ان عادت فسكنتها بعض فصائلهم بمواثيق مغلظة . ومن اجزاء تلك الارض الآن الكحلة وحدها يقدّر حاصل زراعتها سنوياً بأربعين الف ليرة وهي من جملة ملحقات الاراضي السنية

وان لنا من امثال هذا التبدّي بعد ذلك التحضّر ما يملأ الصفحات العديدة فنجتزئ خوف الاطالة بما تقدم مكتفين بالاشارة الى أمثاله في عشائر المتفق والدليم الى ما فوقها من قبائل شمر والعشائر الكردية

وليس بالامر اليسير احصاء تلك القبائل وحصر العدد الذي

يمكن استخدامه في الزراعة . ولقد اجهدنا النفس مدة سنوات بمخالطة بعض العشائر واستقراء اقوال الثقات وتتبع آثار بعض غزواتهم واستماع اخبار بعض شيوخهم وملاحظة سابلتهم في الحواضر فلاح لنا من وراء كل ذلك ان القبائل البادية العربية وحدها في الخطة العراقية وما يليها من بادية الشام حتى اطراف الاناضول وما يلي العراق الى نجد ومنها الى نجد والحجاز واليمن وبادية عمان وحضرموت لا تقل عن السبعة ملايين

وان لدينا في ذلك جداول طويلة لا يتسع لها هذا الموضع يؤخذ منها ان نصف هذا العدد منتشر في الخطة العراقية وبادية الشام في ارض خصبة التربة غزيرة المياه . فاذا اسقطت من هذا النصف نصف مليون وقسمت الباقي ثلثين للعراق وثلثاً لسوريا كان لك ميونا نسمة تضيفها باسهل الطرق الى فلاحي العراق وليس هذا العدد مما يستهان

ثمَّ اذا علمت ما يكون من ازدياد هذا العدد بانقطاع هذا الجم الغفير عن الغزوات والتعرض لمشاق البداوة اذ حيث لا تفنيهم الحروب تنتابهم الأوبئة والمجاعات في سني انحباس الامطار وهلاك الماشية ليبس الكلاء وقلة المرعى وعلمت ان القبائل النائية لا تلبث ان تنضم اليهم بما ترى من فضل البداوة على الحضارة واعتبرت ايضاً انهم بطبعهم كثيرو النسل ثبت لديك ان البلاد ليست بها حاجة

الى الفلاح الاجنبي الاَّ ما يؤتى به للتعليم والتدريب وان فيها من بنيها ومجاوريها ما يكفيها عند الاقتضاء مؤونة ذلك العناء

ويؤخذ مما تقدم ان جميع القبائل المنتشرة في تلك الاصقاع لا تخرج عن احدى فئتين فئة ألفت الزراعة وفئة اخرى لم تألفها بعد

فاما الذين الفوا الزراعة فغاية ما يلزم لاستقرارهم في مواضعهم ومثابرتهم على العمل ان تحسن السياسة في معاملتهم وترتفع عنهم مظالم جباة الاموال وان تنشأ لهم مدارس ابتدائيه يتناول ابناؤهم فيها ولو شيئاً يسيراً من مبادئ القراءة والكتابة في اول الامر ريثما تعمر البلاد ويصير في الامكان تعميم التعليم . واذا خصوا بشيء من مُنَح فلاحي الاراضي السنية كان ذلك غاية ما يتمنون . واما الفئة الاخرى التي لم تألف الزراعة فالنظر في امرها يستلزم اهتماماً اعظم وبذل شيء من المال . ولعل الحكومة تحسن صنعاً باقطاع كل فرقة منهم أرضاً تتجاوز لهم عن مالها مدة سنين تملكهم في نهايتها جزءاً منها بلا ثمن وتخفف عنها جميعها الضرائب مدةً أخرى . ولا بد لها أيضا من امدادهم بآلات الزراعة وماشيتها ولا حاجة بها بادئ بدء الى بناء البيوت لان بيوت الشعر التي لديهم تكفيهم سنين عديدة وخيرٌ لهم وللحكومة ان يشرعوا في العمل وهم في بيوتهم هذه لئلا تأخذهم الوحشة اذا انتقلوا دفعة واحدة من الفراغ وبيوت الشعر الى العمل والبيوت المبنية بالحجر

أو الطين . ولا بدَّ أيضاً من امدادهم خلا بذار الزرع وفسائل الغرس بشيء من الحبوب طعاماً لهم قبل ان تغل لهم مزروعاتهم كفاية قوتهم

فاذا توفرت لهم كل هذه الوسائل السهلة المنال وتيسر لهم بعناية الحكومة من يعلمهم الزراعة ويدربهم عليها فلا أسهل من ارتياحهم اليها

اما سقي الاراضي التي يقطعونها فليس بالامر الصعب حتى في السنين الاول . فان في البلاد ترعاً كثيرة مردومة وترعاً اخرى ضيقة وقصيرة المجال واراضي كثيرة في صعيد العراق وأوساطه تكفي بعض المزروعات فيها مياه الامطار فاذا اسكن بعضهم في هذه الاراضي الاخيرة اكتفوا مدة سنين بماء المطر الى ان تستكمل اسباب الري . ويُعان النازلون على الترع المردومة والترع الضيقة القصيرة على تطهيرها وتوسيعها ومدها على مسافات . ولقد يحسن أيضاً حفر ترع جديدة على مقربة من بعض البلاد الآهلة بالسكان لسهولة ايصال حاصل الزراعة اليها . ولقد رأيت مما تقدم انهم لا تعلو بينهم صيحة شيوخهم حتى يهبوا الى العمل هبة رجلٍ واحد وما اسهل استخراج تلك الصيحة من الشيوخ

ولا شك ان الحكومة لا تكتفي بهذه الوسائل الابتدائية لاحياء بلاد هذا شأنها فلا بد من اتخاذ الوسائل الصناعية لارواء

جميع الاراضي وتسهيل سبل الاتصال ونقل الحاصلات بطرق الحديد ومجاري الانهار والترع ولـكن ذلك يقتضي وقتاً يحسن في خلاله ان تتخذ بعض الطرق التي أشرنا اليها او ما هو من قبيلها

على ان تعميم الري وطرق الاتصال على الاصول الصناعية الحديثة ليس الآن من الصعوبة بالمـكان الذي كان فيه قبل اعلان الحـكومة الدستورية . فقد بادت المطامع التي كانت تقف حاجزاً في وجه جميع الاعمال الاخيرة . وقد زالت الموانع التي كانت تصد العمال عن العمل وذوي المال عن بذله ما لم يثقلوا كاهل البلاد باضعاف أضعافه ضماناً لهم وسداً لما يبذلونه طي الخفاء لارباب السلطة والنفوذ

فاما الفعلة وعليهم مدار معظم العمل فهم متوفرون في نفس البلاد

واما المال فاما ان يكون من البلاد او من خارجها فاذ ارادت الحـكومة الاسراع في العمل والالتجاء الى المال الاجنبي فان ارباب الاموال وشركات العالم اجمع تتسابق الى بذل اموالها في عمل هذا شأنه لقاء فائدة يسيرة لتوثقها مما ترى من ضمان الربح وسواء على هذه الشركات أقامت بالعمل لحسابها أم لحساب الحـكومة ديناً لها عليها

واذا شاءت الحـكومة ان تقوم بتلك الاعمال بأموال العثمانيين

فانا على يقين انه يتيسر لها ذلك أيضاً وان اقتضى زيادة في الزمن لانجاز العمل . لان ما كان يبدو من العثمانيين من التباطؤ عن انشاء الشركات لم يكن ناشئاً عن قلة المام بنفعها أو تعذروجود المال وانما كان لقلة ثقةٍ بحكومتهم

واذ كان نشر العلم من أقوى الوسائل المؤدية الى توطيد أركان الحضارة وكان لا بد لهذه الحكومة الدستورية من إذاعة تعليم اللغة الرسمية ليسهل على العناصر المختلفة ان تتفاهم أيان شاءت وجب أيضاً ان تنشأ ولو بضعة كتاتيب تدرس فيها اللغة التركية لابناء الشيوخ الى ان يتيسر تعميم تعليمها . فان ذلك يزيل من وجه الحكومة الجديدة كثيراً من العقبات التي قامت بوجه السلاطين في الزمن السابق لعدم اكتراثهم بنشر لسانهم بين أبناء رعيتهم . ولقد فكرت حكومة الاستبداد منذ أعوام بشيء من ذلك فانشأت في الاستانة المدرسة المعروفة بمكتب العشائر ولكنها جرت فيه على خلاف المقصود اذ كان أبناء الشيوخ عن الطلبة فيه أشبه برهائن منهم بطلاب علم وأحيطوا بالجواسيس وأوذوا ولم يخف ذلك على ذويهم فكان ذلك المكتب من أسباب زيادة النفور بدلاً من التآلف

وانه لا يصعب على أيٍ كان ان يتصور ما ينجم من النفع للعالم أجمع بعد انجاز تلك الاعمال الخطيرة وقيام المدن والقرى في بلاد تتلقاها بملء البشر بعد طول العهد بشدة شوقها اليها اذ تصبح تلك

القفار رياضاً نضرة ومصدر رزق ورخاء لاهلها ولسواهم بما يفيض من خيرها وتُضاف الى أمم الحضارة قبائل شتيتة هي بمثابة أمة كبيرة قد طالما امتدت يدها في الازمان السالفة الى توطيد أركان التمدن

وأما الدولة العثمانية فبعد ان كانت هذه البلاد علة ضعف وفقر ومعرَّة لها فستصبح ان شاء الله مورد قوة وغنى وفخر عظيم

ولا حاجة بنا بعد ما تقدم الى اطالة الشرح بوصف الحالة الزراعية في سائر البلاد العثمانية مما ولي العراق من سوريا الى الاناضول الى الولايات الاوروبية وبلاد الغرب فان فيها جميعاً بقعاً لا تقل عن أرض العراق خصباً وغزارة ماء وهي كلها متشابهة في الخراب وأسبابه من الاهمال والفتن والاستبداد حتى في ماجاور مقرّ السلطنة في نفس أوروبا كأن الخراب صار من مميزات هذا الملك الفسيح . ولا يصعب على الجغرافي السائح في أوروبا ان يحسن رسم حدود البلاد من تتبع الفرق الذي يبدو له واضحاً بين مظاهرها ومظاهر ما جاورها من البلاد الاوروبية حتى فى الممالك التي انفصلت عن جسمها . وحسبك تثبتاً من ذلك ان تركب قطار سكة الحديد من الاستانة فلا تصل جسر مصطفى باشا على الحدود البلغارية حتى ترى ما فعلت يد العمل والاجتهاد فى هذه السنين القلائل

واما وسائل الاصلاح فهي وان اختلف بعضها في بقعة عما

سواها بالنظر الى طرق السقي وطبيعة البلاد وخلق السكان فمرجعها
كلها الى توطيد الامن والعناية بالفلاح وقد اتضح جلياً حتى الآن
ان ذلك من أجل ما ترمي اليه حكومتنا الدستورية



كلمة في سائر موارد الثروة

المعادن

لم تلتفت الحكومة العثمانية في زمن من الازمان الى تحري المعادن الموجودة في بلاد السلطنة بعناية تضمن استخراج تلك الكنوز الدفينة . ولكن كل الظواهر البادية من تشعب المناطق والتربة فيها وبحث السياح وطلاب الثروة بطريق الامتيازات واهتمام بعض الولاة وتقارير قناصل الدول تؤدي الى الاعتقاد بوجود معادن كثيرة مختلفة الانواع عظيمة الشأن مما ظهرت آثاره ومما لم تظهر

فالفحم الحجري وهو من أعظم اركان الثروة موجود في قسمي اوروبا واسيا مما بذلت بعض الهمة في استخراجه كمعادن هركلي ومما لا يزال مهملاً كمناجم مندلي في ولاية بغداد. ومعادن الكروم والرصاص الفضي تستخرج بقلة من الولايات الاوروبية ومثلها معادن الحمر في الاراضي السنية بسوريا والنحاس في ارغني بولاية ديار بكر . وفي مواضع كثيرة معادن ظاهرة وتوشك ان تكون مهملة كل الاهمال ومنها الذهب والفضة والانتيمون والزرنيخ والسنباذج والزئبق والمنغنيس والحديد والقار الحجري والسائل

والكبريت والبورق ومقالع الرخام على اختلاف أنواعه . وليس ببعيد ان يكون فيها منابع بترول غزيرة فقد شرع منذ نحو خمس وعشرين سنة باستخراجه من ضواحي الاسكندرونة ثم أهمل لاسباب غامضة . واما في ولاية بغداد فوجوده محقق اذ يستعمله أهالي مندلي وجوارها بحالته الطبيعية بلا تصفية. وقد كان مدحت باشا اهتم باستخراجه على الطرق الحديثة فانفق مبالغ طائلة على بناء معمل في بعقوبة استجلب له الآلات والمهندسين وحالما بدت بوارق النجاح غادر مدحت الولاية فاقفل المعمل ولعبت به أيدي الدمار . واما المياه المعدنية بجميع انواعها الحارة والباردة فهي متفجرة في مواضع كثيرة لايكاد يلتفت اليها مع ثبوت مضاهاتها لاحسن الانواع من امثالها في اوروبا . وهي كثيرة بعضها في اوروبا كمياه بورصة وبعضها في اسيا كمياه وادي العمق بولاية حلب

ومن الغريب ان مياه الحمة في فلسطين التي كان يقصدها عظماء اوروبا للاستشفاء وانشأ فيها قياصرة الرومان حمامات تدل آثارها على عظمة لا مثيل لها في اشباهها باوروبا باتت مهملة لاينتابها الاَّ القليلون من ابناء الجوار ممن لا يطيق الانتقال الى اوروبا

واما الملاحات البرية والبحرية فكثيرة جداً وبعضها يستخرج منه الملح بهمة وعناية فينتج دخلاً غير قليل ولا عجب بتلك العناية الخاصة فادارة الديون العمومية هي الرقيبة عليها الحافظة لدخلها

وفي الدستور القديم قانون وافٍ للمعادن ضامن لحقوق الدولة والافراد ولكن الاستبداد كان يعبث به عبثه في غيره فقد شاهدنا غير مرة باحثاً مجتهداً او مكتشفاً خبيراً عثر على منجم فانفق المال في البحث والامتحان وطلب الرخصة الرسمية باستخراجه وأجريت المعاملات المعتادة واذا بالارادة السنية صدرت باعطائه هبة أو لقاء بدل طفيف لاحد المقربين

واما الغابات والحراج فقد كانت كثيرة جداً ومن انواع شتى باد معظمها بالاهمال ومع ذلك فالباقي منها كثير كحراج قسطموني وكليكيا في الاناضول وغيرهما مما لا يفوقه شيء من امثاله في بلاد اوروبا

ولاشك ان الحكومة الدستورية ناظرة الى جميع فروع هذه الثروة الدفينة والمبددة وحريصة على لمّ شعثها وادخارها

الصناعة

ان الصناعة في البلاد العثمانية اسوأ حالاً من الزراعة مع ان فيها منشأ كثير من الصناعات القديمة التي بادت كصناعة لزجاج والقرمز في فينيقيا والنحت والحفر وصناعة التماثيل في جزر الارخبيل والرسم وما لحق به من نتاج الفنون الجميلة في القسطنطينية وما وليها من بلاد الروملي . وكان آخر هذه الصناعات عهداً بالاضمحلال صناعة القاشاني البديعة في دمشق الشام . وهو معلوم ان معظم الامم القاطنة في بلاد الروملي والاناضول والجزر اليونانية وسوريا وأعالي العراق ممن اشتهر في اكثر العصور بالحذق والمهارة في الصناعة ولكن صروف الزمان التي انتابت بلادهم قوضت في جملة ماقوضت أركان صناعتهم . ثم قامت معامل البخار في أوروبا فكانت الضربة القاضية عليها

ومع ذلك فلا يزال في كثير من هذه البلاد كثيرٌ من الصناعات الخاصة بها مما يستعمل لحاجات السكان من المصنوعات المعدنية من الذهب والفضة والنحاس والحديد والحجارة الكريمة والمنسوجات الحريرية ومحوكات الصوف والقطن وصناعة الخشب والدباغة وزخرف البناء وغير ذلك . وان لهم في بعض هذه

الصناعات مهارة توشك ان تُستغرب من قوم طال عهد القطيعة بينهم وبين نتاج الصناعة في العلم الحديث . وحسبك ان تدخل جامع الخليفة عمر الذي جدّد بناؤه حديثاً في دمشق الشام أو تنظر الى المنسوجات الحريرية في كثير من المدن ونفس القرى تحقق ان جرثومة الصناعة حية تنهض منبعثة لاول دافع يدفعها

ولا شك ان هذه الصناعات على قلتها تفيد البلاد فائدة جزيلة بما تستخرجه لاهاليها من لوازمهم وما تفيضه من الرزق على العملة والتجار . ولكن هذه الفائدة لا تذكر بازاء ما تحتمله البلاد بما فيها من يد عامل ونتاج تربة وطبيعة اذ لا يكاد اكثر هذه المصنوعات يكفي السكان . واذا استثنينا مصنوعات قليلة كالسجاد الذي يصدر من أزمير والصدف المنقوش الذي يصدر من بيت لحم والكهرباء من صنع الاستانة فليس في البلاد العثمانية صادر صناعة الى الخارج وأشد من ذلك عليها ان الوارد من المصنوعات الافرنجية من نفس المصنوعات المحلية يربو كثيراً على ما يصرف في البلاد من مصنوع أهلها

وأغرب من هذا ان في أوروبا مصنوعات كثيرة مما لا يستعمل فيها وانما يصنع فيها ليرسل الينا ولربما جهل الصناع وجهة استعماله كالمنسوج المعروف باليازمة وكوفيات العرب المعروفة باليشمق وزجاج النراكيل حتى الفيوس أو الطرابيش

التي هي شعار العثمانيين لم ينشأ لها معمل الا لعهد قريب بهمة الخزينة الخاصة ولكنه لا يخرج الا جزءًا مما تستلزمه حاجة البلاد

ولربما أخذوا مادة تلك المصنوعات من عندنا فربح بها التاجر وأرسلت اليهم فانفقوا على نقلها ورسومها وادخلوها معاملهم فاخذ العامل أجرته الباهظة واضيفت اليها نفقات الشحن والرسوم وأرباح اصحاب المعامل والتجار فذهبت جزة الصوف من عندنا بثمن زهيد وأعيدت الينا طرابيش أو غيرها باضعاف أضعاف ثمنها وتوزعت أرباحها على أصناف الناس ولم يصبنا منها الا الثمن الاصلي الطفيف

وانه ليؤلم العثمانيين بعد نهضتهم هذه ان تكون تلك حالة الصناعة في بلادهم وجميع مواد الصناعة ومعداتها متوفرة لديهم . فعندهم العامل الحاذق النشيط وعندهم الفحم الحجري ومنتجات القوة المتفرقة في انحاء البلاد من منحدرات الانهار الكبيرة الى شلالات الجداول الصغيرة التي تولد الكهرباء بقوة الوف الاحصنة وعندهم احسن المواد اللازمة لمعامل الحديد والخشب والزجاج حتى بناء السفن . وعندهم الحرير والصوف والقطن والكتان للمنسوجات على اختلاف انواعها . وعندهم المعادن المختلفة وسائر اللوازم المادية . فاذا نشطوا من عقال الخمول فشأنهم في اتقان الصناعة لا يقل عنه في سائر الشؤون

ولقد حدت الهمة فيما مضى كثيرين منهم الى انشاء المعامل على الطرز الاوروبي فلم يفلح الاَّ القليل وهذه معامل الورق في الاستانة وبيروت لم تكد تعيش حتى ماتت اذ لم يكن في البلاد من ينشط الصناعة وموازرة الحكومة مفقودة ولكن حيث توفرت اسباب النجاح وساد الامن وأخذت الحيطة اللازمة لاتقان الصنعة ما لبث الاهالي ان افلحوا وانتزعوا الصناعة من ايدي الاوروبيين انفسهم وهذه معامل حل الحرير في جبل لبنان لاتخلو منها الآن بقعة من بقاعه وهي تكاد تكون كلها لاهلهِ وقد كانت منذ سنين قلائل بضعة معامل في يد الاوروبيين . فما تعلم السكان تلك الصناعة حتى شاد تجارهم معامل خاصة بهم وبمدة يسيرة استولوا على صناعة جديدة على الطرز الحديث فكانت مورد رزق عظيم لجميع سكان البلاد



التجارة

ان بلاداً كبلاد الدولة العثمانية وهي عروة الوصل بين قارات العالم القديم الثلاث كان يجب ان تكون قابضة على أوثق أزمة التجارة . فحيثما سرَّحت نظرك على موقعها في رسم الكرة من ضفة الطونا الى السودان ومن بلاد ايران الى بحر الادرياتيك رأيتها مرتبطة بآسيا واوروبا وافريقيا بصلات طبيعية تجعل لها ميزة خاصة تعز على ما سواها وخصوصاً ان لها ثغوراً تشرف على البحار شرقاً وغرباً وشمالاً في طريق لا يكاد يفصله فاصل من البحر الاحمر بترعة السويس حتى بحر عمان والاوقيانوس الهندي وخليج فارس

وان في هذه البلاد شعوباً كان لها في كل زمان قديماً وحديثاً شأن في التجارة عظيم يطوف ابناؤها البحار ويرودون القفار في سبلها طلباً للكسب والاستعمار فحيثما استتبت لهم قوة اليد والمال زادوا على زُمر تجارهم المقيمين في البلاد رواداً يجوبون المجاهل في اقاصي المعمور فيستعمرون استعمار الفينيقيين أو يستطلعون استطلاع العرب الذين بلغوا بطوافهم اطراف العالم الجديد . واذا ضعفت قوتهم وقل مالهم ضربوا اشتاتاً في قلب الارض واتجروا بالقليل من المال الى ان يتجمع لديهم كثيره كما يفعل المهاجرون

العثمانيون في هذه الايام

فبلاد هذا موقعها وتلك صفات سكانها لا بد ان يكون اهلها يوماً في مقدمة الامم التجارية اذا التأم صدعها وصلحت حالها

وليس من غرضنا في هذا المجال الضيق ان نضع تقويماً لتجارة البلاد ونصف الصادر والوارد . وانما هي كلمة اجمالية نستكمل بها هذا البحث الموجز

ان التجارة في البلاد العثمانية جارية بمجراها الطبيعي بمعنى انها تقوى وتضعف بالعوامل الطارئة عليها وقلما نرى للحكومة مسعى في انمائها الا ما أتى عن طريق التوسيع في وسائل النقل واكثره صادر عن مساعي الاجانب . ولكن في تحويل هذه الطرق من جهة الى اخرى أو فتح طرق جديدة خراب بلاد وعمار بلاد كما جرى بعد فتح ترعة السويس اذ تحولت جميع تجارة العجم وبعض تجارة الهند الى هذا الطريق بعد ان كان الصادر والوارد يقطعان العراق الى ثغر الاسكندرونة فانحطت تجارة البلاد من ذلك الثغر الى حلب وبغداد وبلغ الضرر جميع البلاد الممتدة براً حتى الاستانة وهكذا فان فتح هذا الطريق الجديد أضر بتجارة جميع البلاد العثمانية . وان ما نشأ عنه من النفع بالنظر الى ثغور البحر الاحمر لا يذكر بجانب ضرره . ولا نعرف بلداً استفاد منه فائدة حقيقية الاَّ البصرة اذ سهَّل لها اصدار حاصلاتها واخصها التمر الى اوروبا . فلو

كانت طرق الحديد ممتدة في البلاد امتدادها في أوروبا لخفّت وطأة ذلك الضرر . فان الطرق القليلة التي انشئت حديثاً في سوريا قد نشأ عنها رواج في التجارة غير قليل ولا ريب انه بعد بلوغ سكة حديد بغداد الى خليج فارس وتشعب الفروع منها الى اطراف البلاد يكون للتجارة حركة لم تكن في الحسبان

ومع ان الملاحة الوطنية بحكم العدم فللثغور تجارة رائجة بفضل السفن الاجنبية . واما البلاد البعيدة عن مشارف البحر كديار بكر والموصل وارياقهما فما اشد ما ينالها من الضرر لصعوبة النقل منها واليها فلقد يشهد المراقب فيها ما شهد فرعون في مصر اذ اكلت البقرات العجاف البقرات السمان . مرت عليها بعد سنة ١٨٧٤ سنو خصب ورخاء فضاقت البيادر بحاصل الحبوب من نتاج الزراعة ولم يكن في الامكان اصدارها الى الخارج لصعوبة النقل وغلاء اجرته مع رخص اثمان الحبوب فبقيت ركاماً بعضها فوق بعض الى ان تلفت . ثم عقب تلك السنين زمن قحط فلم تأتِ سنة ١٨٧٩ حتى اشتد الضيق ثم كانت مجاعة فتكت بالسكان اي فتك ولم يبلغهم المدد لبعد المسافة حتى فني منهم من فني وتشتت من تشتت من الفقراء وابتاع الباقون من الموسرين قوت يومهم بدخل سنتهم

على ان امثال هذه النكبات سيمتنع حصولها بعد تشعب الطرق في البلاد . وان تفاؤ لنا بنمو التجارة في جميع انحاء السلطنة

لا يقل عنه بسائر وسائل النمو والارتقاء المادية والمعنوية

واذا اعتبرت ان في داخل البلاد جميع أصناف التجارة من حاصل الزراعة حبوباً وبقولاً وثمراً وسائر ما تنبت الارض ويربى فيها مما يستعمل نسيجاً وصبغاً ويدخل في الصناعات المختلفة وما تدخره الطبيعة من غاب ومعدن وحجر وصدف وما يسرح على وجه الارض من ماشية بلحمها وصوفها وجلدها من دابّ وطائر وسابح . - اذا اعتبرت ذلك ونظرت بعين البصيرة الى المستقبل فتصورت ما يكون من شأن جميع هذه الاصناف بعد بسط العدل واستتباب الامن وتسهيل وسائل النقل برّاً وبحراً — واذا اضفت الى ما تقدم نتاج الصناعة المقبلة مع ما تعلمه من اتساع هذه البلاد وتوسطها بين الشرق والغرب يخيَّل لك انه لا يطول بها العهد حتى تصبح المحور الاعظم لتجارة العالم



الاعمال العامة والشركات

اذا ضجت البلاد بالشكوى من اهمال الزراعة والصناعة وقلة العناية بانماء التجارة فشكواها عظيمة أيضاً لاهمال الاعمال العامة المنوط النظر فيها بنظارة النافعة

ولسنا بمنكرين ان في البلاد طرقاً حديدية ومرافئ قليلة وبعض الطرق للعربات وشركات قليلة لتوزيع المياه وما أشبه. ولكن كل ذلك نقطة من بحر من حاجة البلاد. فوسائل النقل وتقريب سبل الاتصال وهي روح انماء الثروة لا تزال قاصرة على بعض طرق الحديد التي لا تفي بالمراد وجميعها ما خلا سكة حديد الحجاز مما يدار بالامتياز بايدي الاجانب بشروط فادحة تثقل كاهل الدولة والامة

ولقد كانت الحكومة وضعت لعهد السلطان عبد العزيز خطةً مستوفاة لجميع فروع الطريق الحديدية التي يجب ان تخترق البلاد عرضاً وطولاً ولكنها أهملت فيما أهمل الا نزراً مما انشأته الشركات الاجنبية. وأظن المقترح لتلك الخطة مدحت باشا

واما الملاحة وهي قرينة طرق الحديد فهي في جميع البلاد العثمانية اسم بلا مسمى. واذا استثنينا بعض بوبخرات تمخر في

البوسفور لنقل المصطافين أو تقطع دجلة لحساب الخزينة الخاصة أو تتهادى بين أزمير والاستانة لحساب بعض الاهالي فليس في البلاد العثمانية ذاتها طائفة سفن تجارية ترود الثغور العثمانية وغيرها لحساب القوة الحاكمة أو الامة المحكومة

أو ليس من الغرائب ان تكون هذه البلاد المتسعة الارجاء وثغورها ممتدة على الوف من الاميال وجزرها قائمة كالرواسي فى قلب البحار ولها من الاشراف على الشواطئ ما تحسدها عليه جميع دول أوروبا حتى انكلترا ملكة البحار مضطرة هي وحكومتها الى استخدام سفن الاجانب فى اقل الحاجات

فاذا كان لنا زملاء مماثلون في التأخر والتقهقر في جميع الشؤون فليس لنا من أمم الارض امة تماثلنا بتأخر ملاحتنا وهذه اصغر الدول لا تعدم سفناً تجارية لها او لابنائها تمخر في عرض البحار . وهذه جارتنا ايران تجوب بواخرها خليج فارس والاقيانوس الهندي وغيرهما . وهذه الدول الصغيرة التي انفصلت من جسمنا باتت جميعها ذوات اساطيل تجارية

واذا كان سلك البحار بما بعد مسافةً يسيرة عن الشاطئ مباحاً لجميع الدول على السواء وكان لنا غنى بسفن الاجانب لنقل ركابنا واصناف تجارتنا اليس من العار ان نكون مضطرين الى نقل بريدنا بين ثغر وثغر على سفن الاجانب مسافة ساعات

واذا ارادت الحكومة ان تملص من تبعة هذا الاهمال زاعمة ان ذلك شأن الاهالي وانها لم تصدّهم يوماً عن القيام بمثل هذه الاعمال فحسبنا ردًّا لهذا الزعم الرجوع الى موقفها ازاء الشركات الوطنية كما سيأتي بعيد هذا والا فسكان جميع الثغور البحرية اهل مجازفة في التجارة واقدام في البحارة كما يشهد ماضيهم . وكثيراً ما يهب افرادهم الى بناء السفن الشراعية لتجارتهم . ولكن بعد ان قضى البخار على الشراع في الاسفار الطويلة باتت سفنهم الخاصة غير وافية بالمقصود التام

انظر مثلاً الى اليونان ابناء الدولة المنفصلة من دولتنا والى اليونان اخواننا في بلادنا وهم جميعاً من دم واحد فلماذا ترى لاولئك بواخر وشركات تسيرها شرقاً وغرباً ولا ترى لهؤلاء امثالها

وانظر ايضاً الى العرب ابناء الدولة العثمانية والى اخوانهم من سكان حضرموت وبحر عمان مما خرج عن سيطرة الدولة وهم اقل منهم علماً ومدنية فعلامَ لا ترى لعربنا اسطولاً تجارياً ولأولئك اساطيل تعد سفنها بالمئات وهي وان كانت شراعية فانهم يبنونها بايديهم ويسيرون بها ماخرين بتجارتهم من ساحل بحر عمان الى الهند والصين وجاوه وسيلان وثغور البحر الاحمر وخليج فارس

فالملاحة من بعض جهاتها اشد لزوماً من طرق الاتصال الداخلية لانها من جهة تربط البلاد بعضها ببعض وهي من جهة

أخرى عروة الوصل بينها وبين بلاد الاجانب . فهي بهذا الاعتبار من أعظم أركان الثروة والقوةوالعظمة. وهذه الدولة الانكليزية يشهد تاريخها ان اسطولها التجاري كانت يده في انماء الثروة واعلاء شأن البلاد فوق يد الاسطول الحربي بكل قوته وعظمته

ومن لوازم الملاحة أيضاً اصلاح المرافئ وهي على كونها تُعدُّ بالمئات ليس فيها ما يصلح لرسو السفن الكبيرة واقامتها فيها الاَّ ما أعدّته الطبيعة كثغر الاسكندرونه وأشباهها ما خلا مرافئ قليلة أُصلحت بيد الشركات الاجنبية كمرافئ الاستانة وأزمير وبيروت . فهذه جميعها امور داخلة في مجال الاصلاح المتسع الذي اختطته الحكومة الدستورية لاعلاء شأن البلاد

وليست وسائل النقل برًّا وبحراً داخل البلاد وخارجها على المسافات الشاسعة باسوإ حالاً من وسائل انتقال أصناف الناس على المسافات القريبة داخل البلاد مما يمكن تسهيله بمد خطوط الترام او تسهيل طرق العربات . ولقد طالما رأينا المثرين من العثمانيين سكان المدن يؤثرون الاصطياف في أوروبا تفادياً من مشقة السفر الى أريافهم العذبة الماء النقية الهواء . ولا غرو فان ابن دمشق الشام مثلاً لايعاني في قطع البحار وصعود الجبال الى سويسرا نصف ما يعانيه هو وتياله بتسلق مشاعب الجبل الشرقي الى احدى قراه البديعة الموقع البهجة المناظر . هذا بصرف النظر

عن سهولة المعيشة في تلك وصعوبته في هذه

واذا انثنيت الى المدائن في قلب البلاد بدت لك أيضاً تلك الصعوبة وان كانت أخف وطأة فان الشاخص مثلاً في نفس بغداد من الباب الشرقي الى باب المعظم تعجزه السهولة التي ينتقل بها ابن باريس الى ڤرساي أو ابن لندن الى بريتَنْ على مسافات تعادل أضعاف تلك المسافة

وقس على ذلك جميع شؤون المدن الداخلية مما يدخل في اختصاص البلديات من انارة وتنظيف وتوسيع شوارع

سألني أحد أصدقائي ممن لم يروا الاستانة ان اكتب له شيئاً في وصفها وكان ذلك في زمن الاستبداد يوم كانت جميع الرسائل تحت رحمة الجواسيس وكلمةُ نقدٍ جريمةٌ لا تغتفر فقلت تملُّصاً من حراجة الموقف بعد وصف جمال ذلك الموقع الفريد: « وكأن الانسان أشفق على ذلك الجمال الرائع ان تعبث به يدهُ البشرية فغادره على فطرة خالقه »

واثناء معرض شيكاغو شخص اليها بعض تجار الاستانة فوصلوها بيوم مطير وبعض اطراف البلدة اذ ذاك غير مستتم التنظيم فكتبت احدى الجرائد: « وصلت اليوم زمرة من زوّار المعرض قادمة من القسطنطينية فاهلاً بالضيوف . وانه ليسرنا جداً انهم وصلوا بمثل هذا اليوم والاوحال ملء الازقة فلا تأخذهم

الوحشة لفراق عاصمتهم اذ يرون من قذارة شوارعنا ما يستأنسون به لذكرى وطنهم العزيز »

وان من قرأ نظام البلديات وجال في انحاء السلطنة تتولاه الدهشة لما يرى من التناقض بين القول والعمل بل يزداد دهشةً مما يراه من فضل المدن الصغيرة على الكبيرة بانفاذ مضمون ذلك النظام . فلو جلت في شوارع مدللي البلد الصغير ثم طفت شوارع الاستانة تلك العاصمة العظمى هالك ما رأيت من فضل الاعتناء بالصغير على الكبير . والسبب في ذلك ان ما يجبى من المال لحساب البلديات في المدن الصغيرة لا يذهب منه هدراً الا ما يختلسه المأمورون . واما في المدن الكبيرة فعوامل تبديد المال محيطة بالبلديات من كل جانب . فهناك الاختلاس العادي وهناك الاوامر القاضية بصرف تلك الاموال بوجهات غير مشروعة بحجج شتى أو تقديمها للخزينة قرضاً لا يخطر في البال ردّه . ولا ننس أيضاً ان قسماً عظيماً من اموال البلديات يذهب بارادات سنية معاشات للمنفيين من الاحرار او المتزلفين الى ذوي الكلمة العالية من المقربين . فلا يبقى في خزانة البلدية غير ثمالة لا تشفي غليلاً

فلا تعجب بعد ما تقدم بيانه ان تكون اكثر الشوارع قذرة والازقة ضيقة معوجة يصعب المرور فيها نهاراً لكثرة الازدحام وليلاً لاشتداد الظلام ولو لم تكن يد العناية قد جعلت اكثر تلك

المدائن في مواقع نقية الهواء لكانت الاوبئة تجرف السكان جرفاً

أما سائر الاعمال النافعة الخارجة عن اختصاص الحكومة والبلديات والتي لا تقوم الا بتألف الجماعات لانفاق المال فحالتها اشرّ وأدهى اذ لا يكاد يوجد أثر للشركات الوطنية . وحيثما وجدت طريق حديد أو شركة لتوزيع الماء أو لانارة بلدة وما أشبه فانما هي بيد الشركات الاجنبية ما خلا القليل من مثل الشركة الخيرية والشركة المخصوصة التي تنقل الركاب بين الاستانة وجزر الامراء وضفاف البوسفور أو شركة ترامواي الكاظم التي انشأها مدحت باشا ببغداد . ولكن منافع هذه الشركات منحصرة بيد أفراد قلائل وليست اسهمها مما تتداوله الايدي بسهولة تداول ما لسواها من سائر الاسهم لاسباب ليس هنا موضع بسطها . فليست اذاً بالمثال الذي يقاس عليه

ومن المضحكات انك لو قلت هذا القول في زمن الاستبداد فاقل ما كان يصيبك من أسباب المهانة أن تكذّب فيه فيقال لك ان جميع الشركات في البلاد العثمانية عثمانية بمقتضى القانون فيقال البنك العثماني وشركة الرزي (احتكار الدخان) العثمانية . فهل كان يتاح لك حينئذ ان تقول ان نعت تلك الشركات بالعثمانية انما هو حلية لا تفيد كونها وطنية . وكيف تكون عثمانية بالفعل ومجالس ادارتها في باريس ولندن وفينا وبرلين

وان بعض هذه الشركات كالبنك العثماني وشركات طرق الحديد وشركات الماء قد أفاد فائدة يحق لها أن تقتضي تسطيرها في التاريخ ولكن ذلك ليس بالمانع لنا من التصريح أن الشركات الوطنيـة أجزل نفعاً لو أمكن تأليفها واحسنت ادارتها ولم تقيّد حريتها

ولقد يقول أنصار الاستبداد ان المانع من انشاء الشركات الوطنية أسباب ثلاثة لا شأن للحكومة فيها . أولها قلة المال وثانيها قلة رغبة الاهالي في الاقبال عليها وثالثها تعذر وجود المديرين الصالحين للقيام بالعمل وهو كلامٌ لا يخلو من الصحة في كل وجوهٍ . ولكنه لولا وجود سبب رابع هو قلة الثقة بالحكومة لتيسر تلافي هذه الموانع الثلاثة شيئاً فشيئاً

فاما المال فاننا لا نزعم انه متوفر لدينا توفره في اوروبا ولكننا مع ذلك لو حسبنا اموال العثمانيين الموزعة في الشركات الاجنبية داخل البلاد وخارجها لكان لنا من ذلك رأس مال يعد بالملايين وهو وان لم يكن كافياً للقيام بجميع الاعمال اللازمة فلا ريب ان بعضه يكفي للقيام بجزء عظيم منها . واما قلة رغبة الاهالي في الاقبال على امر لم يألفوه فمما تقدم يتضح ان ذلك زعم فاسد واليك مثالاً يثبت فساده باجلى بيان

اراد المرحوم برتقال باشا سنة ١٨٩٢ وهو اذ ذاك ناظر

الخزينة الخاصة ان يسير طائفة من السفن تمخر في دجلة بين بغداد والبصرة ثم في الفرات بين البصرة ومسكنة لتقوم مقام بواخر ادارة عمان التي انشأها مدحت باشا وكادت تأول الى الاضمحلال فخطر له دفعاً لمظان الريب عن الخزينة الخاصة ونعم الخاطر ان يؤلف شركة وطنية من اهالي العراق باشتراك الخزينة الخاصة وكنا ممن أخذ رأيه في الامر لسابق اطلاعنا على اعمال ادارة عمان فقلنا ان اقبال الاهالي على الاكتتاب سيكون عظيماً على شرط ان تطلق يدهم في العمل . فخوبر والي بغداد فجمع التجار ثم ارسل تقريراً ضافياً يقول فيه ان تجار بغداد وحدها مستعدون للاكتتاب بضعفي رأس المال المطلوب . فنظم برتقال باشا قانون الشركة وجعل من جملة شروطه ان يكون الوالي (او ناظر الاراضي السنية ببغداد) رئيساً دائماً لمجلس الشركة وانه هو الذي يعين مواقيت سفر البواخر فقلنا حينئذ اننا وان لم نكن ممن اعتاد الرهان نراهن بكل ما عزّ وهان انه لا يتيسر جمع شيء مما اكتتب به ما لم يلغ هذا الشرط فلم يقع هذا القول موقع القبول . ولما اطلع تجار بغداد على مضمون ذلك القانون نكلوا جميعاً وآل الامر الى انشاء تلك البواخر لحساب الخزينة الخاصة فسيرتها في دجلة على نية ان تسيّر اخواتها على الفرات

واما القول بتعذر وجود المديرين الصالحين لادارة العمل من كل وجوهه فهو صحيح ولكن الافرنج لم يخلقوا مديرين للشركات

فما المانع ان نحذو حذوهم ونتخذ منهم معاونين نتدرَّب بموازرتهم على ادارتها فلا يمر زمن يسير حتى نعتاد ما اعتادوا ونحسن ما احسنوا. فان حاجتنا اليهم من هذه الوجهة ليست دون حاجتنا اليهم للاعمال الهندسية وسائر ما سبقت لهم به خبرة لم ينلنا منها بعد غير نصيب ضئيل

ثم ان من راقب أحوال البلاد الاقتصادية في الثلاثين سنة الماضية يرى في البلاد نهضة حقيقية لتثمير المال بواسطة المشروعات العامة واذ لم يكن للعثمانيين ثقة بحكومتهم وحكامهم كانوا حيثما أرادوا ولوج هذه الاعمال أو تثمير أموالهم باسهم الشركات تستروا تحت اذيال الاجانب

وانا لانزال نذكر أياماً تقدمت اعطاء الامتياز بمرفأ بيروت فبحث البيروتيون في المسألة على اختلاف نحلهم فقلنا لرجل من كبار موسريهم يتلهب غيرةً على الاسم العثماني ويجود للجند بمالٍ كثير زكاةً عن ماله: « علامَ لاتؤسسون شركتكم هنا وتحرزون كل فائدتها» فقال « ومن يضمن لنا كف يد الحكومة أو الولاة عن التداخل بشؤوننا والمال عزيز نضن به ان يكون طوع امر ولاة الامر فانا الضمين بتقديم نصف رأس المال وحدي اذا كان مركز ادارة الشركة في باريس او لندن ولا اجازف بقرش اذا كانت الشركة عثمانية اسماً وفعلاً ومركز مجلس ادارتها بيروت أو الاستانة »

واذا أردت برهاناً اعظم فانظر الى كل صنائع المابين الذين

كانوا ينالون الامتيازات بلا عناء أفما كانوا جميعهم يبيعونها من الاجانب باثمان بخسة مع علمهم انهم لو ألفوا لها شركات أو استثمروها بانفسهم لنالهم من الربح اضعاف ما نقدوه . ولكن أنى يتسنى لهم ذلك وثقتهم مفقودة من نفس انفسهم ولا يعلم الواحد منهم مع كل عظمته متى تأتي نوبته فينضى سيف النقمة فوق هامته فكيف تحصل الثقة بعد ذلك لسائر الناس

ولقد اسلفنا اننا لسنا ممن ينكر فضل الاجانب بتأليف الشركات عندنا اذ لولاهم لبقينا الآن نخترق الوديان والهضاب على البغال والجمال ولم يكن لنا مرفأ ولا مصرف ولا شيء من وسائل العمران الحديث ولسنا أيضاً ممن يقول بوجوب الاستغناء عنهم لو فرضنا ذلك في الامكان فالبلاد تستفيد من مالهم وعلمهم لقاء ما يستفيدون منها . ولكننا ننكر كل الانكار ان لا يكون لنا يدٌ في شيء من تلك الاعمال في بلادنا . واذا شاركناهم بالمال فانما نحن شركاء متسترون بنفوذهم وسيطرتهم

اما الآن وقد احتجب طالع الاستبداد وفتحت الابواب للطلاب فالامل ان لا تمر برهة طويلة حتى نرى ايدي ابناء الوطن ممتدة الى كل عمل مفيد في بلادهم سواء استقلوا به بانفسهم او استرشدوا له بشريك أجنبي



السياح والمستوطنون

لا يعجبن القارئ اللبيب اذا عقدنا لهذا البحث باباً خاصاً ألحقناه بابواب موارد الثروة وان كان لا يجوز حسبانه من مصادر الثروة الطبيعية ولا سيما في بلاد لا يجد السائح الغريب فيها كل ما تتطلبه نفسه من اسباب النزهة والراحة . فاننا الآن في ابان نهضة يجب ان نتطاع من خلالها الى كل وسيلة من وسائل العمران. والاموال التي ينفقها روّاد البلاد ليست بالمبالغ التي لا يعتدّ بها

واننا لا نطمع ان يكون لنا بزمن قريب مراتع للنزهة الخالصة كباريس تلك الجنة الجامعة للهو والزهو واللطف والظرف والعلم والمال فانها لم تبلغ ذلك المبلغ الا بقرون مضافة الى كياسة السكان وجهادهم . ولكنه يحق لنا ان نطمع مذ الآن بجعل بلادنا نجعة الروّاد من كل طالب راحة وعافية وراغب في ترويض نظر وترويح نفس واستطلاع اثر ومن كل ورع متعبد

وان لنا من اختلاف مواقعها وتاريخها ميزة خاصة تجتذب اليها السياح من كل فج سحيق

فان فيها مواطن الانبياء ومهابط الوحي فهي بهذا الاعتبار محجة المسلمين والمسيحيين وبني اسرائيل من كل أقطار الارض

وليس هذا بالشيء القليل وان لاح قليلاً في الحالة الحاضرة . اذ لو نظرت الى المعالم الدينية في أوروبا وعلمت ان زوار واحدة منها كسيدة لورد في فرنسا يربو على عدد جميع الزوار الذين ينتابون بيت المقدس من أبناء جميع الاديان تحققت اننا لو أعددنا هنا من اسباب الراحة في الحل والترحال ما اعدوا هنالك لكان للبلاد من وراء ذلك مورد ثروة جديد

ولا ريب ان اعظم حسنة يسجلها التاريخ للحكومة الغابرة انما هي سكة حديد الحجاز لانها بعد انتهائها ومد فروعها الى البحر الاحمر وانتظام شعبها الى البحر المتوسط ستكون بقطع النظر عن سائر ما لها من الحسنات اعظم دعامة لهذا الركن المتين وسيتضاعف بها عدد الحجاج عما قريب .

ومع ذلك فيبقى على اولي الامر وابناء البلاد ابتداع كثير من الاصلاح اللازم لمعدات الراحة في الاقامة والانتقال داخل فلسطين وما جاورها مما لا بد منه من اسباب التأمين والتشويق على ما اعتاده زوار المسيحيين والاسرائيليين في أوروبا

ولا يجب أن ننسى سائر مقامات الزيارة داخل البلاد كالنجف وكربلاء والكاظم في ولاية بغداد وما لها من الحرمة لدى المسلمين كافةً وأهل الشيعة منهم خاصةً يتوافدون اليها مئات والوفاً من ايران والهند مع كل ما يلقون من عنت الحكام وطمع المأمورين

وان جميع أبناء بغداد وحكامها يعلمون ان هؤلاء الزوار من اعظم مروجات التجارة عندهم يتشوفون الى قدومهم تشوف الظمآن الى الماء كيف لا وهم يزيدون عن الخمسين الفاً سنوياً من ايران وحدها ومع هذا فقد يذيقهم الحكام من مرارة المعاملة ما يلجئ الشاه في بعض السنين الى منع رعاياه من الزيارة فيشعر البغداديون بالكساد ويبسطون يد الرجاء الى حكامهم فيأمرون ببسط الامن ويبدون المجاملة فيعود الزوار الى زيارتهم مدةً ولكنهم لا يلبثون ان يروا من سوء المعاملة ما يضطرهم الى الشكوى مرة اخرى

فلو مهدت لهم السبل كما يرجى ان تمهد الآن وضُرب على أيدي العتاة من آمر ومأمور فالاقبال حينئذٍ عظيم والفائدة مضمونة للفريقين

وهو معلوم أيضاً ان البلاد العثمانية تضم في اكنافها أعظم معالم التاريخ القديم ولا يخفى ما في ذلك من مشوقات الزيارة لمستطلعي الاخبار ومكتشفي الآثار وكل سائح ضارب في الارض عالماً كان أو طالب نزهة مرتاض ففيها مواطن البابليين والاشوريين والحثيين والسلوقيين . وفيها قامت دول المصريين والاسرائيليين والعرب والارمن ودول اليونان الفريجية والليقية والليدية والطروادية والبمفيلية والقباذوكية وغيرهن . وفيها كثير من آثار الدول التي احتلت بعض اجزائها كالفرس والرومان . ومنها أخذت

نفائس الآثار التي تزدان بها متاحف باريس ولندن وبرلين وبطرسبرج

ولقد طالما رأينا السياح يأتون من أقصى الديار فيقطعون البوادي والقفار لرؤية تلك المعالم يعانون من المشاق ما لا يكادون يعانون أعظم منه في مجاهل افريقيا . تنظَّم لهم القواقل وتحمل لهم المطابخ والخيام وتعد لهم المطايا فينفقون لرؤية آثار بابل وأشور ما لا ينفقونه بسياحة حول العالم . وزد على ذلك انهم لا يبلغون جميع الامكنة التي يقصدونها لاختلال الامن في كثير من تلك الاصقاع ومع هذا فلا نعدم منهم وفوداً عاماً بعد عام

فاذا مُهّدت لهم الطرق واقيمت لهم الفنادق واعدت لهم اسباب الامن والراحة فما عسى ان يكون من اقبالهم وانتفاع البلاد بعلمهم ومالهم

واذ انثنينا الآن الى سائر اسباب السياحة من طلب صحة بتبديل هواء وراحة بعد عناء ونزهة في بلاد جميلة المناظر صافية الجو عذبة الماء ففي البلاد العثمانية كل ما يتطلبه السائح صيفاً وشتاءً خريفاً وربيعاً من كل ماوقع تحت سماء المناطق المعتدلة والحارة والباردة

فان طالب الدفء واللاجئ من زمهرير الشتاء لا يجد في نيس وما حاذاها ورومة وما وليها ملاذاً آمن من اطراف فلسطين وارياف العراق ومدائنه وثغور طرابلس الغرب . ولا نضرب مصر

مثلاً لان سياح العالم اجمع عرفوا مزيتها قبل الآن وهي قدرتهم قدرهم فاستتمت لهم المعدات فنالت قسطها منهم ونالوا قسطهم منها واذا استبقوا فيها كل سنة ما يقرب من ثمانية ملايين من الجنيهات فانما هو كسبٌ تحرزهُ رزقاً طيباً ومالاً حلالاً

وطالب النسيم العليل المنهزم من قيظ الهجير والجانح الى العزلة والسكينة فراراً من ضجة المدائن او استجماعاً لقوة انهكها توالي الاكباب على العمل لا يجدان في جبال سويسرا واشباهها معتصماً امنع ومرتعاً ابهج من الجبال المتشعبة في قلب كثير من الولايات الاوروبية والممتدة الى كليكيا وسوريا. وحسبك منها جبال بيلان ولبنان والجبل الشرقي . قننٌ تتعالى بعض فوق بعض لك منها ما شئت لجميع الامزجة من قوي وضعيف من علوّ مئات من الاقدام الى علو عشرة آلاف قدم تنفجر منها الينابيع بالماء الزلال ولا يشوبها تقلب الهواء الفجائي الذي يعتري جبال اوروبا . وان لك من صحة اجسام ساكنيها على شقائهم وخشونة معيشتهم دليلاً على فضلها على ما وازاها من جبال اوروبا

جرى لنا في صيف سنة ١٩٠٤ حديث مع المرحوم مظفر باشا متصرف جبل لبنان فكان يتأفف متبرماً من حراجة موقفه وقصر يدهِ عن اتيان ما يرغب من الاصلاح ونفع الجبل بما يستبقي له فيه الذكر الجميل . قال : قد كاد يبلغ اليأس مني اقصاه فلا ارى وجهاً

لاتيان امرٍ جديد انفع به هذه البلاد . رغبت في انشاء المرافئ فصدوني من الخارج ورغبت في زيادة الضرائب لاجراء بعض الاصلاح فصدوني من الداخل وجبلكم فقير صغير يضيق نطاقه عن معاش سكانه يهجرونه أفواجاً الى الديار القاصية حتى خلت قرى كثيرة من السكان ولست أرى ما سيكون من سوء المصير .
فقلنا بعد بحث طويل : وهب انه ليس في لبنان شيء من موارد الرزق أليس هذا موقعه على اكتاف الاراضي المقدسة وهذا هواؤه وماؤه . أو ليست هـذه الفئة التي تقصده للاصطياف من جواره في سوريا ومن القطر المصري مورد رزق ينمو عاماً فعاماً . ينفق المصريون المصطافون في أوروبا زهاء خمسة ملايين من الجنيهات مع جهل كثيرين منهم طبائع الاوروبيين ولغاتهم فلو سُهّلت لهم وسائل الرفاه والراحة لحسبنا منهم خمس هذا المبلغ ولا نقول كله أو نصفه . أفلا ترى دولتكم ان كل سنةٍ يلقون فيها بشراً وايناساً بمرفأ بيروت تتلوها سنة اخرى يتضاعف فيها عددهم . وكل سنة يصادفون فيها عبوساً وتضييقاً تتلوها سنوات لا نرى منهم فيها غير النزر القليل. فلو سعيتم لدى المراجع العالية باكرام وفادتهم في الثغور ثم اجهدتم النفس باتقان الوسائل الداخلية من طرق وفنادق وأشباهها كان لكم أثر فوق كل أثر فقال كل هذا صحيح ولست بغافل عنه ولكن . . . .

ثم ان الراغب في الجمع بين النزهة والاستشفاء بانتياب ما يدعى في اوروبا بمدائن الماء هيهات ان يلقى في شيء منها فوق ما يلقى من جودة الهواء واعتدال حرارة الماء وبهجة المناظر على ضفاف البوسفور وما قابله من جزائر الامراء وجزر الارخبيل وثغور البحر المتوسط

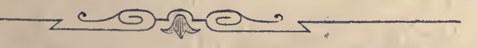
والحق بما تقدم ينابيع المياه المعدنية الصالحة للشرب والاستحمام والذاهبة جميعها ضياعاً ما خلا شيء من ينابيع بورصة . فما أجدرها ان تكون مجمعاً للسياح يرتادونها الى هيت وما يليها من اراضي العراق واطراف العمق في حلب وغير ذلك مما هو متفرق في اطراف البلاد وقد سبق لنا في التاريخ ان تكون بعض ينابيعنا المعدنية مجتمعاً لسياح العالم الروماني كما اسلفنا عن حمامات فلسطين ومنها تتألف المياه انهاراً تندفع الى البحر كزرقاء معين وغيرها فما المانع من رجوع مثل ذلك العهد على عهد الاصلاح هذا

واننا غير مغترّين بوفرة هذه المصادر الطبيعية للثروة ولسنا بطامعين ان تفيض ميازيبها نضاراً في سنة او سنوات قلائل ولكنه لا بد من تنبُّه اخواننا العثمانيين في كل قطر من اقطارهم الى ثروة يمكن الشروع مذ الآن في استدرارها شيئاً فشيئاً

تلك خلاصة ما يقال بالايجاز عن حالة السياحة في البلاد العثمانية . واما المهاجرة اليها بقصد الاقامة او الاستعمار فعلى نوعين

احدهما مهاجرة فئة من الاجانب بمعاونة ارباب الاموال منهم فتتوطن في بقعة من الارض توطنها في بعض جهات فلسطين مع البقاء على جنسيتها وليس هنا موضع البحث فيها . وخصوصاً ان هذه الفئة تجد لها من نفسها من اسباب العناية بها ما يغنيها عن عناية الحكومة . والثاني مهاجرة القادمين اليها من تلقاء انفسهم بقصد الاقامة والتجنس بالجنسية العثمانية كمهاجري بلاد الجركس واكريت وبوسنه وهرسك وهؤلاء هم الذين يجب ان توجه الحكومة كل عنايتها الى نفعهم والانتفاع بهم فان اللجنة المعروفة بقومسيون المهاجرة والمعقودة لهذا الغرض في الاستانة يحق لها جزيل الثناء لما تبذله من المساعي ولكنها قد لا تصيب الغرض المقصود في بعض الاحوال . اذ ما الفائدة مثلاً من اسكان الجماهير من هؤلاء المهاجرين ومعظمهم من الزراع في المدن الكبيرة كازمير او دمشق الشام مع وجود البقاع المخصبة التي تنعق بها غربان القفر . فاذا كانت ثمة مطالعات ماضية فقد انقضى امرها . ثم انه ليسوءنا ايضاً ان الذين أسكنوا في الاراضي الزراعية لم ينظر الولاة بعين العناية الى اسباب راحتهم وامدادهم بالمعدات اللازمة واعداد المنازل الوافية لهم من حر الصيف وبرد الشتاء ولهذا فشا الموت في بعض فرقهم ممن أنزل في اعالي العراق فقلّت رغبة المهاجرة بين مواطنيهم في بلادهم لما بلغهم من تلك الاخبار المؤلمة

وان مجال المهاجرة الى البلاد العثمانية متسع جداً وتناول اطراف البحث فيها مما يضيق عنه نطاق سفرنا هذا الصغير وانما هي نفثات عثماني محب لوطنهِ باح بشيء منها وادخر ما بقي منها لفرصة اخرى



الخاتمة

نظرة عامة — مجلس المبعوثان في السنة الاولى —

الدولة العثمانية بعد خمس وعشرين سنة

هذه عجالة سطرناها في شؤون البلاد العامة عبرةً وذكرى . وهذا ما تراءى لنا وجوب الخوض فيه ابان هذا الانتقال الغريب والانقلاب العجيب . وان هو الا قطرة من عُباب المباحث التي يجب على كتاب العثمانيين ان يخوضوا غمارها استلفاتاً لانظار اخوانهم وحكومتهم الى كل فرع من فروع الاصلاح مما يتناول البلاد برمتها أو ينحصر خاصة في كل قطعة منها

ونخالنا ادينا فرضاً واجباً وتوخينا الصدق والاخلاص في كل ما تقدم ولم نتسرع الى بسط شيء من شؤون العناصر المختلفة التي يتألف منها مجموع هذه الامة والخطط الخاصة التي يجب ان تنتهج حتى تندمج اندماجاً لا يعقبه تفرق وتخاذل . ولا الى النظر الى علاقات العثمانيين بمن عداهم من الامم القريبة والبعيدة . وفي الجملة لم يكن من غرضنا الآن التعرض الى شيء من أحوال السياسة الداخلية والخارجية . فان لدينا من بواعث الاصلاح الداخلي بالنظر الى موارد الثروة ودواعي التضام والتضامن لاجل ادراك حقيقة الحرية والدستور ما هو ادعى للبحث العاجل وأوسع مجالاً لاقلام الكتاب

لا يتوهمنّ ابناء الوطن العزيز ان الدستور نعمة اتتهم عفواً . فلئن أعلن واستقبل ولم تهرق يوم اعلانه الدماء وقال الناس تلك اعجوبة لم يأت الزمان بمثلها فانما هو قول صادق بالنظر الى منتهى ادواره والى الحكمة الباهرة التي ازدان بها رؤساء هذه الحركة وما ابرزوه من التجرد عن الغايات والمطامع

فحقنوا الدماء التي كانت موشكة ان تتدفق سيولاً

والا فان من تتبع سير الحوادث التي ادت الى اعلان الدستور يعلم علم اليقين ان جهاد الاحرار لم يزل مستمراً منذ عشرات السنين وان دماء ابناء تركيا الفتاة ودماء انصارهم وغير انصارهم سالت انهراً طامية قبل بلوغ هذه الامنية

ومع هذا فاننا لم نزل في اول ميدان الجهاد والعقبات الصعاب تكتنفنا من كل جانب . ونصراء الاستبداد غير مائتين . وانما هي استماتة وقتية يرتقبون الفرص في اثنائها ولهم من ابناء التقليد البحت وحزب التقهقر الاعمى عون قوي يلتف حولهم ايان تسنى لهم الامر . والاصفر الوضاح ما زال يبذل سراً لعرقلة المساعي التي يقوم بها دعاة الاصلاح . وللدولة من المشاغل السياسية ما يجعل اسرة البغاة بارقة املاً باستعادة شيء من ماضي رفعتهم وساقط نفوذهم

فاذا علم العثمانيون ذلك وثبت لهم من كل اعمال حكومتهم الجديدة انها غير ذاخرة وسعاً في كل ما يؤول الى منفعة هذه الامة وان رجالها لكثرة اعمالهم لا يكادون يملكون الوقت الكافي للاشتغال بالمهام المطروحة على بساط البحث والتدبير وجب عليهم ان لا يقلقوهم بالمطالب الفارغة والتشكيات التافهة والشغب الداخلي . فالوقت ثمين والفرص فرارة وهذا الحين حين التفرغ للاصلاح . فاذا وضعت دعائمه واستقرت اركانه فليشتغل ابناء هذه الامة وليشغلوا حكومتهم بما شاؤا من معدات الزينة وزخرف الكماليات

ولما كان مجلس المبعوثان ممثلاً لمجموع الامة وشعاراً حياً للحكومة الدستورية كان من المنظور ايضاً ان تتألب عليه قوى اعداء الدولة من الخارج واعداء الاصلاح من الداخل . وسيتخذون لهم عوناً منه عليه ويجهدون

النفس باثارة الشقاق بين اعضائه و بينهم و بين الحكومة . و يستسهلون الامر بالنظر الى انه لم يسبق لاحد من اعضائه الانخراط في مثل هذا السلك الدقيق . وان اول ما يتذرعون به الى نيل بغيتهم بث روح التهور ودعوة الاعضاء الى مناهضة الحكومة

على اننا لا نخال المبعوثين وهم من صفوة ابناء الامة ينقادون الى تلك الدسائس . ولا نخالهم الا شاعرين جميعاً ان أوقاتهم في الاربعة الاشهر من السنة الاولى لاجتماعهم لا تكاد تكفي للنظر في اللوائح الاصلاحية المعدة لهم والتي ستطرح أمامهم للبحث فيقضون جلسات السنة الاولى في النظر الى موارد الاصلاح العاجل فيفيدون الفائدة اللازمة ويخدمون الخدمة الصحيحة و يستفيدون من الاختبار ما يؤهلهم الى اقتراح ما شاؤا من الاصلاح في السنين المقبلة الا ما تراءى لهم به حاجة ماسة الى عدم التأجيل مما اغفلته الحكومة . وهذا بلا ريب اقل من القليل

واذ كان يرجى من مجلس المبعوثان ولا سيما في السنة الاولى ان لا يزعج الحكومة بما يصرفها عن التفرغ للاصلاح كان من الواجب أيضاً على أبناء الامة ان لا يزعجوا الاعضاء بما يصرفهم عن التفرغ لمهمتهم . فلقد أيد لنا الاختبار باجتماع المجلس الاول سنة ١٨٧٦ ان أبناء كل ولاية كانوا يظنون مبعوثهم منتدباً عن منتخبيه لا غير ومأموراً بانفاذ جميع رغائبهم وابلاغ تشكيات افرادهم مهما كانت حتى لقد كانت الرسائل في بعض الولايات تنهمر كالمطر على رؤس مبعوثيها حاملة من المطالب ما لو طرحه المبعوث للبحث لما ناله الاهزء رفاقه اجمعين . فمن طالب عزل خصم له واحالة مأموريته اليه . ومن ملتمس رتبة ونشاناً . ومن راغب في اصدار امر لوال بالقاء نظره عليه أو الى مشير يجعله ملتزماً للارزاق العسكرية . حتى كان من جملة تلك المطالب

ان مكارياً سرقت دابته فكتب الى منتدب ولايته ان يأمر باعادتها اليه

وانا بلا ريب لم نكن نلام على ذلك الجهل في ذلك الحين . وقد يحصل مثل هذا التطرف في اعظم بلاد الحضارة . ولكننا الآن في مركز حرج لا يسعنا الا ان نرمي فيه الى غاية واحدة فنعلم ان كل مبعوث هو منتدب للنظر في جميع شؤون البلاد . وان مصالح الولاية التي انتخبته اذا كان لها مصالح خاصة لا تأتي الا في الدرجة الثانية . وانه كلما خفف عنه منتخبوه من مطالبهم الخاصة زادوه مقدرة على خدمتهم ونفعهم

وهو معلوم ايضاً ان لدى الدولة من المشاكل السياسيةما لا يقتضي من الهمة والحكمة دون ما اقتضاه نيل هذا الدستور ولقد علمنا من تاريخ مجلس المبعوثان الاول ان بعض اعضائه كانوا بتهورهم عوناً لاعداء الدولة على بلوغ غاياتهم منها وعضداً لحزب التقليد علي التعجيل في فض ذلك المجلس الى أجل غير مسمى . فكفى بما مضى عبرة لنا وعظة . ورجاؤنا ان يتخذالاعضاء التأني والتروي شعاراً متجردين عن المصالح الخاصة غير طامعين بكسب الشهرة من وراء المناقشات الطويلة التي لم يحن بعد زمنها . فاننا الآن احوج الى تلقي الدروس منا الى القائها بالخطب واللوائح . وحسب الاعضاء مراقبة اعمال الحكومة بعين محتاطة وفكر نقاد لا يهيج الا لخطأ يبدو لديه فيشير اليه اشارة المصلح الحكيم

وان جميع أبناء هذه الامة المخلصين عالمون الآن ان المجال متسع للاعداء والحساد لتحين الفرص لتمزيق شمل هذه الشعوب التي تضامت بعد التخاذل الطويل وان الايدي ممتدة من كل جانب الى استحياء التعصب الديني والتعصب الجنسي وايقاظ ابالسة الفتن . فاذا لم تقطع هذه الايدي قبل ان تجد لها متمسكاً تتشبث به كانت الحالة الاخرى أشر من الاولى .

والا فان قيض لنا الله قطعها مذ الآن كان لنا الفوز المقيم والظفر الثابت

لم يمر على العالم منذ خلقه الله زمن خطا فيه العلم مثل خطواته في السنين الثلاثين التي انقضت . فان عقول البشر سرحت كل مسرح فوسعت المعارف المعقولة والمنقولة فمحصت التاريخ وضربت في مجاهل الارض وسهلت العلوم القديمة وأوجدت علوماً جديدة في كل باب من ابواب المادة والاجتماع . وفتحت للعمران سبلاً لم تكن في الحسبان . وحامت حول المجهولات حومة استجلت بها الكثير من غوامض الطبيعة . واكتنفت الاختراع والاكتشاف من كل جوانبهما فطافت بهما وجه البسيطة وخرقت قلب الارض وغاصت في اعماق البحار وطارت في الهواء وامتطت لب الاثير فتجاوزت الى الافلاك . وضمت كل ذلك الى ما ادخره لها الاقدمون وهي لا تزال دائبة ساعية الى حيث لا يعلم الا الله . كل هذا ونحن في هذه الحركة المستمرة جامدون خاملون يتلقاها العالم اجمع بوجه بشوش ونحن نصدها عن اجتياز بلادنا . وما هي الا شرارات متناثرة قذفتها علينا في سيرها وتجاوزتنا الى اقاصي الارض فلبثنا حيث نحن والعالم في سير حثيث

ولرب قائل يزعم ان في القول مبالغة لان حالة العلم عندنا الآن ارقى منها منذ ثلاثين سنة . ولكن أين هذا الترقي مما كان يجب ان يكون اذ ليست الدرجة التي صعدناها بالشيء المذكور في هذا السلم المترامي الى السماء . أو لا تزال بيننا طوائف بل شعوب برمتها تائهة في بحران الجهل والغباوة . او لا تزال طبقتنا الراقية نفسها متأثرة من نتائج الضغط والعسف في هذا الزمن الطويل

وقد كانت الدنيا تعذرنا كل العذر فيما مضي ، أما الآن وقد تقوضت الحواجز فما عسى ان يكون العذر . وهذه الفرص قد حانت فائن لم نتشبث

باذيالها غادرتنا هذه المرة وهيهات ان تعود

تلك أمور ادركها جميع ابناء الطبقة الراقية من العثمانيين . ولهذا نراهم متحرقين غيرة على حفظ ربط الوئام الذي لا تقوم دعامة لهذا الملك الضخم بدونه . وانهم بلا ريب يقاومون بمجامع قواهم ما ربما يبدو من مساعي سفلة الغوغاء الذين يقصرون عن ادراك نبالة تلك الغاية السامية ولا نخالهم الا غانمين ظافرين

يقول الحساد والمبغضون من اعدائنا والقانطون الخاملون من اخواننا هيهات ان يتسنى استحياء هذا الشبح الضئيل وقد عرفه العالم بالجسم العليل . نخر الفساد عظمه واعمى العجز بصره وغشى الجهل على بصيرته وضرب الاستبداد على مجموع قواه فانحلت واستحكم التخاذل بين اعضائه فأوشكت ان تتمزق فأنى له ان يستجمع قواه وتنبعث فيه روح جديدة

فهل فات هؤلاء الشامتين والمشفقين ان داءنا لم يكن بالداء العضال على ما تصوروه وان علتنا لم تتجاوز الاطراف الى القلب والدماغ بل هي قروح غشت اجزاء الجسم الظاهرة فشوهت منظره واقعدته برهة عن الحركة فخيل للناظر انه قد قضي عليه مع سلامته من كل علة قتالة . فاذا علم ان كل تلك القروح كانت ناشئة عن وخز ابر الاستبداد وان تلك الابر قد اقتلعت وكسرت وذر بلسم الدستور فالأم تلك الجراح الدامية هان علينا ان نثق بالشفاء التام والانبعاث في ميدان الحياة بقوة الجسم الصحيح

ولا يهولنّ العثمانيين واصدقاءهم ما يرون من البون الشاسع بينهم وبين الامم العريقة في المدنية فان السبل التي تفتحت لاولئك بالجهد والعناء هي بادية متسعة لنا نلج منها ما شئنا وباب الاختيار متسع لنا اكثر منه لهم

والعالم منذ نشأته اخذ وعطاء ودين ووفاء . فليس بالكثير علينا ان نتلقى

ببضع سنين ما ادركوه بجهاد القرون الطوال فقد سبق لهم ان اختزنوا بزمن يسير كل ما جمعه اسلافنا ذرة ذرة من علم وتمدن واختراع بسالف العصور فحفظوا منه ما شاؤا ونبذوا ما شاؤا . ولهذا لم يكن بالفرض الواجب علينا ان نطبّق كل تمدننا على كل تمدنهم بماله من الحسنات والسيئات . ولا يصعب علينا ونحن في أول مراقيه أن نختار حسناته ونضم اليها ما وافق حالة جونا وتربتنا فنبتدع لنا تمدناً شرقياً صافياً من شوائب الفساد والترف الذي يعود بنا القهقرى فيوءدي الى الانحطاط والانحلال

وليزد أبناء الوطن ثقة وطمأنينة بعلمهم ان الدول تدول وتنقرض واما الامم فلا تنقرض ولا تتلاشى بل تبقى حية ما حيي الناس . وقد تتحول من حال الى حال فتنحط وترتقي وتندمج بغيرها . وقد تفرق وتتوزع افرادها في المجتمع البشري فتفقد وطنيتها الاولى . ونحن والحمد لله لم نزل في مواضعنا فلم نزل أمةً حية . وان جميع ما ظهر فينا من الانحطاط وفقد الوطنية انما هو عارض زال بانقراض دولة الاستبداد فليس في سبيلنا ما يعوقنا عن بلوغ أسمى مبالغ الامم . وان أعظم عقبة يتذرع بها الاعداء الى صدنا عن بلوغ تلك الامنية انما هي استحياء روح التضاغن بيننا وهي العقبة التي يسعى جميع العثمانيين الآن الى تحطيمها ومحو آثارها وهم بالغون مآربهم منها عما قريب ان شاء الله

وليست شقة الاصلاح بالشقة البعيدة على ما يتوهم الجالسون على سرر الرفاه فالساعي اليقظ يقطع مئات الاميال والخامل الوسنان متكئ على منصة خموله . فالزمن زمن جد وسعي وحسب هذه الامة أن يسعى أبناؤها فيجروا وراءهم قسراً كل متقاعس هيّاب . فلقد مرّت على هذه الدولة قرون وهي صاعدة في سلم الارتقاء ثم عقبها قرنان تعاقب فيهما الجمود والانحطاط

الا فترات نهضة يسيرة لم تستحكم معداتها . ولقد مرت كل تلك القرون مرّ السحاب . فاذا حسبنا لايناع ثمار هذه النهضة الاخيرة ربع قرن فخمسٌ وعشرون سنة ليست بالامد المديد في عمر أمة طوت القرون . وما هي الا بمثابة شهور في عمر انسان . وخمسٌ وعشرون سنة من وجه آخر ليست بالزمن القليل لامة ناهضة راغبة في استكمال جميع معدات الاصلاح بعد نيل حريتها . والحرية ام العجائب

لم تكد تمر أيام على اعلان الدستور حتى انقلب وجه هذه المملكة انقلاباً معنوياً تاماً فزال الشقاق وساد الوفاق وانطلقت الافكار والالسنة والاقلام وتكسرت قيود المظالم والمغارم . ولا ريب ان الانقلاب المعنوي طليعة الانقلاب الحسي . فاغمض جفنيك وانظر بعين الخيال الى ما يكون من شأن هذه الدولة بعد ربع قرن اذا ظللنا مثابرين على السير في هذا السبيل

أفلا ترى العائش منا بعد هذه السنين يرى جميع أبناء هذا الوطن قد أدركوا معنى الحرية الصحيحة وعرفوا ما لهم وما عليهم وأوثقوا عرى الاخاء والسواء فأصبحوا أنفساً متعددة في جسم واحد يعمل عملاً واحداً

أو لا يرى أيضاً انه بانطلاق الحرية الشخصية المقيدة بقيود الحقوق وفروض العدل والذمة تنمو سائر فروع الحرية فتتسع معاهد العلم لكل أنواع العلوم مما كان مباحاً وما كان محظوراً . وان ربع قرن يكفي لتخريج ناشئة جديدة على نفس جديد وروح جديدة لم تتأثر بشيء من مؤثرات الاستبداد بل تحفظ ذكراها حفظاً يسهل لها الموت في سبيل الذود عن حياض انفسها

أو لا يكفي هذا الزمن لجعل صحافتنا وأربابها ممثلو الرأي العام وقادة الافكار ترتقي الرقي الصحيح الى ما يجعلها نبراساً يفيض نوراً على اكناف هذا الملك المتسع فيبث مع روح حب الاطلاع روح المثابرة على التقدم

والتضافر على العمل . والى جانب الصحافيين الكتاب والشعراء وقد اطلقت الحرية أقلامهم ينشئون المجلات الباحثة في جمع الشؤون العلمية والاقتصادية ويؤلفون وينظمون ويزيلون جميع ما بقي من أغشية الجهل القديم . والى جانبهم العلماء يشتغلون اشتغالاً صحيحاً بالعلم فلا يروعهم اذا نظروا في تركيب كيميوي ان يتهموا باعداد الآلات القتالة . ولا اذا نقبوا في بطن الارض ان يقال انهم يفتحون مدفناً لاعداء العلم . ولا اذا اجتمعوا للبحث في معضلة ان يذاع انهم متآمرون للفتك باعداء الحق . وان اشتغالهم وحريتهم لهم كل هذا الزمن ليس بالعمل العقيم

وما عسى أن يقال عن اعمال الجمعيات وقد خلا لها الجو ربع قرن فتتألف أنواعاً وأصنافاً مما يضم العثمانيين من طلبة مدارسهم الى شيوخ ساستهم وعلمائهم فتتناول التربية والآداب والمباحث العلمية وتتخطى الى النظر في موارد ثروة البلاد ووسائل استخراجها وتتطرق الى مباحث الاكتشاف والاختراع

بل ما عسى أن يقال عما تبلغه المرأة العثمانية في خمس وعشرين سنة وهي القوام الاعظم لكل تمدن حقيقي ثابت . وهي نصف هذا الجسم فلا تصح حياته الا بصحة حياتها . وهي العون الاكبر للرجل في رجوليته ومربيته في طفوليته ورفيقه في عزلته ومؤاسيته في شدته واليها مرجع الفضل في تثقيف العقول النامية وانبات غرس الفضائل فيها . ولكم حفظ لها التاريخ في الجاهلية والاسلام ودول الحضارة من مأثرة يفاخر عظام الرجال باحراز امثالها . وانه يسرنا ان نفاخر أيضاً انه كان للمرأة التركية يدٌ قوية في نهضتنا الحديثة فلقد ناضلت وجاهدت وخاطرت بنفسها فكان لها بذلك فخر يسطر بمداد الذهب فاذا كان هذا شأنها في زمن الاستبداد فما عسى ان يكون بعد خمسة وعشرين عاماً اذ تكون هذه النفحة الطيبة قد سرت منها الى سائر اخواتها من بنات

هذه الامة في كل صقع وناد وأعدت المدارس للبنات اعدادها للبنين وانقشعت غياهب الجهل المغشية بظلم الرجال على عقول النساء . فلا ريب ان المرأة العثمانية تدخر في تربية النابتة الجديدة فضلاً يعم الذكور والاناث وتحرز في توطيد دعائم هذه النهضة فضلاً لا يقل عن فضل مكافحة الرجل في معترك السياسة وميادين الذود عن الاوطان

وليست الخمس والعشرون سنة بالزمن اليسير بالنظر الى اعداد نجباء الفتيان في مدارس الحكومة والمدارس الوطنية لتولي مناصب الحكومة عن علم صحيح ولياقة تامة في جميع فروع الادارة والقضاء والسياسة والجندية . فانظر ماذا تكون حالة البلاد يوم تتولى المناصب أربابها الذين أعدوا لها وما ينجم من استتباب الامن وسيادة العدل وما يكون من غيرة المأمورين وجهدهم يوم يعلمون ان الواحد منهم يرتقي بجده واخلاص خدمته وان غيث الرتب والاوسمة المختلسة قد انحبس عن كل متزلف مداهن . وانظر بعد هذا ماذا يكون من طمأنينة الفلاح والصانع والعامل والتاجر بعد اصلاح الطريقة الشائعة في جباية الاموال ووضع حد لكل من حقوق الحكام والمأمورين

واذا هالك ما ترى من تباين الاخلاق والعادات بين هذه الشعوب المختلفة فاعلم ان معظم ذلك ناشئ عن اختلاف لغات القوم . وسوء التفاهم مبدأ الشر والعدوان . وان خمساً وعشرين سنة لزمن كافٍ لنشر مبادئ اللغة الرسمية في جميع انحاء المملكة . وان تعميم طريقة التعليم على نمط واحد يؤلف بين القلوب . واذا تفاهم الناس حسن ظنهم بعض ببعض وزالت اسباب الفتن وتسهلت طرق الوئام فاصبحت هذه الامم امةً واحدة تسعى الى غرض واحد

واذا راعك ما رأيت فيما سلف من بوادر التعصب الذميم فحسبك ان

تلفت الى نشوة التآخي التي هزّت جميع العثمانيين على اختلاف مللهم ونحلهم على أثر اعلان الدستور وقيام سماحة شيخ الاسلام ناشراً لواء الوفق والسواء معلناً مطابقة ذلك للشرع الشريف ومن ورائهِ سائر رجال الدين يؤمنون ويصفقون طرباً . كل هذا والجهل لا يزال فاشياً في أطراف البلاد . فما الظن بما آنا الميمون بعد خمسة وعشرين عاماً والعقول مستنيرة حينئذٍ بنور العلم والعرفان والافكار متسعة لما هو فوق هذه المشاغل الدنيئة وجميعنا مترابطون بعرى المصلحة المشتركة

واذا انثنيت الى التبصر بموارد الثروة بدا لك كأنك في حلم لكثرة ما يتراءى لك من الكنوز الدفينة على ما أسلفنا . على ان ربع قرن زمنٌ للمشتغل طويل يتيسر له في أثنائه استحياء موات الارض بجميع الوسائل العلمية والعملية فتحيا الزراعة وتقتبس فنون الصناعة فتنشأ المعامل لجميع المصنوعات وتروج التجارة وتعقد الشركات الملاحة واستخراج المعادن وتسهيل سبل الاتصال وسائر الاعمال الرابحة . فانظر بعين الخيال الى ما يتدفق حينئذ الى خزينة الحكومة وصناديق الاهالي من الاموال الذاهبة الآن ضياعاً . فما هي الا فترة يسيرة حتى ترى هذه المجاهل القاحلة جناناً أريضة من خليج فارس الى ضفتي البوسفور . تفيض مياه دجلة والفرات على ارجاء العراق فترجع بها الى زمن العباسيين وتنبت فيها المدن والقرى البائدة نبتاً جديداً فيبتسم الحضري بشراً وسروراً ويتحضر البدوي آنساً آمناً . وقل مثل ذلك في بادية الشام وبقاع سوريا وسهول الاناضول ومنابت الروملي ورياض المغرب وسائر اجزاء السلطنة . وينقلب حينئذٍ سيل المهاجرة فيقف المزمعون ويعود الراحلون وتصبح هذه البلاد الفسيحة مرمى الآمال ومحط الرحال بعد ان كان الراحل عنها محسوداً على الخروج سليماً منها وان قضى حياتهِ شريداً طريداً

واذا تأملت أخيراً في دعامة الهيبة والسلطة والامن ونعني بها الجندية رأيت أننا مذ الآن في موقف لا يستهان فان لدينا من الضباط المحنكين وفتية الجند الباسلة ما ترتفع الرؤوس به عزاً وافتخاراً فما قولك بهذا الجيش المتفاني في حفظ بيضة السؤدد والمجد بعد خمسة وعشرين عاماً وقد تثقفت جميع طبقات الامة فمشى المسيحي الى جانب المسلم والاسرائيلي الى جانب اليزيدي والبدوي الى جانب الحضري فألفوا جسماً واحداً يرمي جميعاً الى غاية واحدة ألا وهي حفظ الذمار ودرء العار . واذا ساءك أن قوتنا البحرية في ضعف وعجز ظاهر فبمدة خمس وعشرين سنة لنا متسع من الزمن لاعداد أسطول من أعظم الاساطيل وتدريب جيش بحري من أعظم الجيوش وليست قلة المال في الآونة الحاضرة مانعاً من ادراك هذه الامنية فلقد أبنا في ما تقدم ما حصل لدينا من الوفر العظيم بالغاء رواتب الجواسيس وما يلحقها من الخرج الباهظ في أبواب أقفلتها حكومتنا الدستورية مما يحصى بالملايين هذا خلا الزيادة التي ستستمر في الدخل بلا زيادة في الضرائب حتى تبين لنا بالاحصاء فقلنا ولا حرج أن دخلنا بعد بضعة عقود من السنين سوف يعادل دخل أعظم الدول الاوربية

وحسبنا في الختام أن نضرب لك مثالاً هذه الاجسام الصغيرة التي انفصلت عنا فألَّفت الممالك والامارات وآخرها البلغار لم يكد يمر على انفصالها ثلاثون عاماً حتى جعلت لنفسها شأناً خاصاً وقامت تزج نفسها في عداد الدول وسارت في طريق الترقي شوطاً لا يمكن انكاره وألَّفت لها جيشاً وابتنت الحصون والقلاع ولم تكن الا جزءاً صغيراً من هذه السلطنة العظمى . وهي ليست مع هذا ملة واحدة على ما يتوهم البعض بل عندها ما عندنا من تشعب الملل من السلافي الى اليوناني الى التركي المسلم والاسرائيلي وهلم جرًّا ولهذا

لا نرى غلوًّا في شيء مما تصورنا لحالة البلاد العثمانية بعد ربع قرن يمر من هذا التاريخ

فياحبذا ذلك اليوم الذي نراه مذ الآن في مسارح الخيال يوم لا يبقى من الاستبداد الا ألم ذكراه وطرب الفوز بدك معالمه . يوم ينتشر العلم فيسطر الفلاح حساب مزروعاته بخط يده و يتفاهم جميع أبناء البلاد بلاواسطة ترجمان. يوم تنتظم الفتيان جنباً لجنب في فرق الجندية من أبناء كل ملة ودين . يوم تخضل الارض ولا ينال البحار من مياه الانهار الا فضلاتها . ويهب أرباب الاموال الى تثمير أموالهم في بلادهم فيؤلفون الشركات و يتبارون بانشاء المعامل و ينيلون البر حظاً مما رزقهم الله زكاةً طيبة تنفق في كل باب ينتفع به أخوهم العاجز والفقير . يوم يخفق العلم العثماني في عرض البحار على أساطيل الدفاع و بواخر التجارة وتتشعب طرق النقل براً و بحراً تشعب العروق في الجسد . يوم يفاخر أبناء الامة العثمانية سائر أمم الارض

وليس هذا اليوم ببعيد باذن الله



فهرس الكتاب

صفحة